

أرض المعجزات

رحلة في جزيرة العرب

الدكتورة بنت الشاطئ



0263871

مكتبة
Bibliotheca Alexandrina

9

دار المعارف

أرض المبعثرات، ولقاء مع التاريخ

أرض المبعثرات ولقاء مع التاريخ

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطئ)

أستاذ الدراسات القرآنية بجامعة القرويين

(المغرب)

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كوينيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دعاء :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

[سورة إبراهيم]

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

صدق الله العظيم

[سورة البقرة]

الإهداء

هذه طبعة جديدة من أرض المعجزات ، أكتبها بعد عشرين سنة من رحلتي الأولى إليها ، فتكشف لي الرؤية البعيدة عن آفاق خفيت عليّ وأنا في أخذة اللقاء الأول بالأرض المباركة التي شاء الله لها أن تكتب تاريخاً جديداً للعالم ، وأن تتجلى فيها من آياته تعالى :

● آية البيان ، في هذه اللغة العربية التي نشأت في رحاب البادية من ليل الجاهلية ، لتفرض حيويتها على الزمن ، وتشرف بتزول القرآن الكريم بها ، فتغدو لسان أمتنا المعبر عن جوهر إنسانيتها الناطقة .

● وآية الفجر الصادق ، الذي بزغ نوره في ليلة القدر المباركة ، حين خرج المصطفى ﷺ من « غار حراء » مبعوثاً بختام رسالات الدين ، يتلو الكلمات الأولى من هذا القرآن : معجزة نبوة ، وكتاب شريعة ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان ، والنور الذي حدا مسرى البشرية الأمية من ليل الجاهلية ، وقاد مسعاها إلى آفاق المثل العليا للحق والخير والجمال .

● ثم كانت آية العلم ، كشفت عن السر الذي أجتته الصحراء آماداً وحقباً ، وبثت الحياة في الوادي الأجرد غير ذي الزرع ، فتدفق عطاء كنوز الصحراء ، منطلقاً إلى شتى الآفاق ، ومشاركاً في موازين القوى لعالم اليوم . . .

هذه هي أرض المعجزات .

أسترجع فيها ذكريات رحلتي الأولى إليها من قبل عشرين عاماً ، وأضيف إليها عطاء رحلة لي جديدة ، في موسم الحج من عامنا هذا ، كانت لقاء مع التاريخ العريق في مهد النبوة وأرض المبعث ، اتصل فيه الحاضر المشهود بالماضي الحي ، في رؤيا ملهمة رقّ فيها الحس والوجدان ، وصفا القلب والضمير . .

فإلى هذه الأرض التي أعطينا لغتها لساناً معبراً عن جوهر إنسانيتنا الناطقة .
وإلى بقاعها المباركة التي كانت لنبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام مهداً ومبعثاً ،
والتي تظل أبداً الدهر قبله أمتنا ومثابة حَجَّها ومَهوى أفئدتها ،
أُهدى هذا الكتاب ، تحية اعتزاز وولاء . .

عائشة عبد الرحمن

مصر الجديدة

١٣٩٢ : ١٩٧٢

دليل :

- ليل الجزيرة
- «خلق الإنسان . علمه البيان»
- الفجر الصادق ،
- «هُدًى للناس وبيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ»
- وراء الأسوار
- «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»
- لقاء مع التاريخ
- «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» .

(١)

رحلة إلى جزيرة العرب

١٣٧٠ هـ : ١٩٥١ م

- ليل الجزيرة
- الفجر الصادق
- وراء الأسوار
- صور من الجزيرة
- المغنربات
- جارة النبي
- هاجر
- آمنة

في عطلة منتصف العام الجامعي ١٩٥١ م ١٣٧٠ هـ دعانا الشوق إلى أرض المبعث ، فأجمعنا أمرنا على أن نسعى إليها معتمرين زائرين .
وحرص كثير من الأساتذة والطلاب على الاشتراك في الرحلة ، لكن المبلغ الذي حُدد لها - خمسة وأربعين جنيهاً - حال دون كثير منهم ، فلم يبق منا غير عشرة من كليات : الآداب والطب والزراعة والتجارة ، بجامعة القاهرة ، فيهم ثلاثة من الأساتذة .
ووضع برنامج الرحلة في حدود ما تسمح به ميزانيتها المتواضعة ، فلم نطمع في أكثر من قضاء العمرة وزيارة مثنى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام .
وكان بودنا - نحن الذين درسنا علوم العربية والإسلام - لو اتسع المجال فامتدت الرحلة إلى ربوع الجزيرة التي عشنا العمر كله ندرس لغتها ونشدو بأشعارها ونتمثل بواديها ودروبها ومنازلها ، ونصحب شعراءها ورُجّازها وصعاليكها ، من وراء القرون ذات العدد . . .
لكن قصور وسائلنا وزادنا ، أبقي هذه الأمنية بعيدة المنال . . . حتى شاء الله فزار مصرَ « صاحب السمو الأمير فيصل » وتفضل فوضع الرحلة تحت رعايته الكريمة ، بعد أن استقبل وفدنا منا ، أستاذنا أمين الخولي ، والدكتور محمد عبد السلام العيادي ، والدكتور محمود المنجوري .

وأوفد سموه ، السيد فؤاد شاكر لتوديعنا بمطار القاهرة ، حين بدأنا منه رحلتنا صبح يوم الأحد ، الرابع من شهر فبراير .
حملتنا طائرة سعودية إلى جدة لتجد في استقبالنا فوجاً من كرام الرسميين والعلماء والأدباء ، ولنعلم أننا ضيوف جلالة عاهل الجزيرة « الملك عبد العزيز آل سعود » - طيب الله ثراه -

في أصيل يوم وصولنا ، سعينا إلى مكة محرمين ، فقضينا العمرة وصلينا العشاء في المسجد الحرام ، ثم نزلنا في دار الضيافة حيث أمضينا أمسية حافلة مع المكين الكرام ، وفي الصبح زرنا معالم أم القرى وطفنا بمشاهدها . ثم عدنا إلى جدة حيث دعينا إلى الغداء بالقصر الملكي في ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » .
وطاب لنا مجلسه ، وطاب معه الحوار الخصب الحى في قضايا الشعر العربي والفكر الإسلامي . وذكرنا به شعراءنا الأمراء : من امرئ القيس وعُليّة بنت المهدي وعبد الله بن

المعتر وأنى فراس الحمدانى ، إلى ولادة بنت المستكفى والمعتمد بن عباد . . هؤلاء الذين أثروا تراثنا الأدبى بعباء شاعريتهم الملهمة ورؤى وجدانهم المرفه ، ولطفوا من وطأة إحساسنا بمهانة القولة الشائعة الذائعة : « الشعر تجارة العرب » .

* * *

قال سمو الأمير يودعنا :
« أنتم فى داركم وبين أهليكم . لا نضع لكم برنامج الرحلة . بل حسبكم أن تختاروا لها ما شئتم ، وعلينا التنفيذ .
من ثم ، رفعت الحدود التى كانت تقيد خطانا فلا تأذن لنا بالتحرك فيما يحاوز منطقة : جدة ، والحرمين . .

وفى دار « السيد الشيخ محمد سرور الصبان » - رحمه الله - رسمنا برنامج رحلتنا فى حرية وغبطة : نظير إلى الظهران ، ومنها نوغل فى نجد والأحساء ، ونبلغ القطيف والبحرين ، ثم نتجه إلى الرياض فنحى جلالة الملك العاهل ، ومن هناك نأخذ طريقنا الجوى إلى المدينة المنورة لنسعد بزيارة حبيبنا المصطفى عليه الصلاة والسلام . .

* * *

رحلتنا إلى الظهران كانت حافلة مثيرة . وفيها أقمنا سبعة أيام نتجول فى المنطقة ونسمع قصة الزيت .

وقضينا يوماً فى جولة بحرية بالخليج العربى ، بقارب بخارى أعدته لنا إمارة الدمام ، وزودته بطيب الطعام والشراب ، ووسائل الراحة .

ويوماً فى « القطيف » على ساحل الخليج ، مع صاحب كرام من الأعيان والشعراء . وبقى من أسبوعنا هناك خمسة أيام لزيارة دور التعليم ، وآبار الزيت ومعامله ، وميناء الدمام . متنقلين خلال ذلك من غداء فى بستان السيد الوزير الشيخ عبد الله السليمان ، إلى عشاء فى قصر الإمارة ، ضيوفاً على سمو الأمير الشيخ عبد المحسن بن جلوى ، إلى حفلات سمر واستقبال فى دور كرام القوم بالدمام والظهران والخبر .

وسعدت بلقاء السيدة الكريمة حرم سمو الأمير عبد المحسن التى استقبلتني لترحب فى شخصى بسيدات مصر أم الدنيا . وقد شدتنى إليها بلطفها وإيناسها ، وجاذبية أصالتها البدوية ، وملاحظتها النقية التى لم تشوهها الأصباغ والألوان ، وبساطتها الفطرية التى لم يفسدها زيف وتكلف .

وفى الرياض كان لقاءنا بالعاقل الكبير ، جلالة الملك عبد العزيز . وفى مجلسه بالمرتع ، لم يكن لجلالته حديث إلا عن محنة الأمة بعار إسرائيل ، وقد مدَّ بصره إلى الأفق الشمالى يستوعب أبعاد النكبة فى رؤية ثاقبة . ويحس بحدس فراسته الملهمّة ، نذر الإعصار العتّى يوشك أن يوغل فى صميم وجودنا وينتهك أقدس حرماننا . .

وتهدج صوت العاقل الشيخ ، إذ يتساءل فى حيرة وأسى :
مى تحتشد الأمة للجهاد ، عسى أن يبذل حياته وأبناءه قدية لشرف أمتنا ؟
وأراه لم يملك دمه ، وهو يتمنى على الله تعالى ، لو أنه أعفاه بالموت من شهود الكارثة . ورحمه من وطأة المعاناة الباهظة لإصر التخاذل وذل العار .
ودعنا جلالة العاقل - رحمه الله - وفى النفس همّ وشجن ، لم يلف منها ما حظينا به من كرم الوفاة وأنس اللقاء ، كان لى معها أن تطف جلالته فدعانى « أميرة الصحراء » . .

حتى شددنا الرحال إلى المدينة المنورة ، فما حومت طائرنا فوق أرضها الطيبة ، حتى اشترأت لها أرواحنا الظائمة وقلوبنا المشتاقة ، وانجابت عن أفقنا الظلال والغيوم ونحن نستقبل مئوى الحبيب ، ونطوف بالربوع العاطرة بأنفاسه ، ونسير حيث سارت خطاه . .

* * *

وعدنا إلى مصر نحمل أجمل ذكرى لأطيب رحلة وأكرم ضيافة .
ومضت الأيام ومشاهد الجزيرة تترامى لى على البعد والقرب ، فتغرينى بأن أحدث قومى عن أرض المعجزات التى يتمون إليها عقيدة ولساناً ، ويستقبلون المسجد الحرام فيها ، حيثما كانوا . .
وسلام عليها : داراً وأهلاً . .

ليل الجزيرة

وآية البيان

أَوْقَدُ فَإِنِ اللَّيْلَ لَيْلٌ قُرٌّ
وَالرَّيْحُ يَا غَلَامُ رِيحٌ صِرٌّ
عَلَّ يَرَى نَارَكَ مِنْ يَمَرٍّ
إِنْ جَلَبَتْ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرٌّ

حاتم الطائي

مرّت على صحاريها الحِقْبُ والدهور وهى قاحلة مجدبة ، رهية مرهوبة . يحوم حولها الخيال ثم يرتدّ عنها فزعاً مذعوراً ، لا يكاد يميز بين صفير الرياح فيها وعواء الوحوش وعزيف الجان .

وتترأى الأشباح للسايرين فيها بليل ، فيجسمها الوهم لا يكاد يفرق في الدجى بين كتبان الرمال وقطع الظلام ، وتلك الأشباح التى تسرح طليقة في ليل الفلاة . وربما تمثلت لهم الجن وقد تلبّست شخصاً آدمية في شياطين البشر ، أوفى وحوش الفلاة .

وإذ غاب عنهم تفسير ما يلقون في ليل الصحراء من غريب الظواهر ومباغطات الأخطار ، ردّوها إلى هذه الكائنات الخفية التى ترصد لهم بين كتبان الظلمة وسود الصخور . وقد تخرج لهم من أحشاء الأرض في صورة ثعبان أرقش أو حية رقطاء أو أرنب وحشى .

وامتلأت الجزيرة بأساطير تحكى ما يلقاه الضاربون في نجد والدهماء والربع الخالى ، من أفاعيل الجن وألعيب الفيلان ، فزادت من رهبة القفر الموحش ، يتقيّه السارون إلا أن تدفعهم ضرورات العيش إلى ركوب مخاطره وأهواله . حيث يلمسون مواضع أقدامهم على حذر ، وهم يستعيذون من شر ، فيما يقول راجزهم :

قد استعلنا بعظيم الوادى
من شرّ ما فيه من العوادي

وكان من راكبي القفر شعراء ، حفظ ديوان الشعر الجاهلى لبعضهم مغامرات ومواقف مع الجن ، من اختراع الخيال أو من أضغاث الأحلام وتجسيم الوهم ، كقول شاعر منهم يصف جنّاً نزلوا به حين أوقد ناره في ليل القفر :

أتوا نارى فقلتُ : منون ؟ قالوا سراة الجنّ ، قلتُ عِمُوا ظلاما
وقلتُ : إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : نخسّدُ الإنسَ الطعاما
لقد فُضِّلْتُمْ بالأكل عنا ولكنّ ذاك يُعَقِّبُكُمْ سقاما

وقال الشاعر الصعلوك « تأبط شراً »^(١) يفاخر بمغامراته مع الجن :
 أنا الذى نكح الغيلان فى بلدٍ ما طَلَّ فيه سِمَاكِيٌّ ولا جادا
 ومنهم من زعم أنه اتخذ له فى القفر مطايا من الجن ، مشخصة فى أرناب وحشية :
 وكلَّ المطايا قد ركبنا فلم نجد الدُّ وأشهى من ركوب الأرناب
 وكذلك زعموا أن الجن ناحت على قبر « حاتم الطائي »^(٢) لما كان فى حياته يوقد من
 نار القيرى فى ليل الفلاة ، فيؤنس الضاربين فى مجاهلها ويجدون لديها ملاذاً وقرى ،
 وحفظوا له قوله لغلامه :

أَوْقَدْ فَإِن اللّيل ليلٌ قَرٌ
 والريحُ يا غلامُ ريحٌ صِرٌ
 علٌّ يرى نارك من يَمُرٌ
 إن جَلَبْتُ ضيفاً فأنت حرٌ

فيروى عن « أبى عبيدة ، معمر بن المثنى »^(٣) عن رجل من بنى طيئ : قال :
 [رأيت قبر حاتم الطائي بِقَّةً ، - موضع بديار بنى طيئ - وإذا قُدورٌ عظيمة من
 أحجار مكفآت ناحية القبر ، وهى التى كان حاتم يطعم فيها الناس . وعن يمين قبره أربع
 جوارٍ من حجارة ، وعن يساره كذلك . ولهن شعورٌ منشورة كالناتحات عليه ، لم يُرَ مثُلُ
 بياض أجسامهن وجمال وجوههن ، مثلن الجن على قبره : فإذا هدأت العيون ارتفعت
 أصوات الجن بالنياحة عليه إلى طلوع الفجر ، فحينئذ يسكن .
 قال : وربما مرَّ المارُّ فيراهن فيميل إليهن ، فإذا قاربهن رآهن أحجاراً] .

وليس هذا بعجيب من تصورات الخيال وتهاويل الرؤى ، وقد تسمع مثله فى مناطق من
 الغرب الحديث^(٤) وقد راجت هذه الحكايات وأمثالها فى أنحاء الجزيرة ، فلم ينبج من التأثير

(١) ثابت بن حابر ، انظره فى (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، و (المفضليات) للضبي

(٢) حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي ، الشاعر الجواد المشهور فى الجاهلية بالكرم والسخاء انظره فى : (الشعر

والشعراء) .

(٣) من أئمة علماء العربية فى القرن الثانى للهجرة انظره فى (نزهة الألبا) و (أخبار النحويين) .

(٤) أذكر أنى شهدت فى جبال النمسا العليا ، صحرة من عجيب تحت الطبيعة ، لا يشك الرأى من بعيد أنها جسم
 امرأة نائمة . وسمعت القوم هناك يحكون لى ، فى ليلة ساهرة لشهود القمر الصناعى ، أسطورة حب نسجها الخيال لهذه
 (الأميرة النائمة)

بها شاعر شيخ كالتابغة الديقاني ، وهو يعيش في بلاط النعمان بن المنذر بإمارة الحيرة . كالذى قال في شكواه من ذوى الضغن عليه ، في قصيدته الرائية التى ذكر فيها قصة الحية « ذات الصفا » وما لقيت من عذر خليل لها من الإنس ^(١) :

* * *

في ذاكرة الزمن ، كانت تعيش مروييات عن حضارات الأقوام وممالك من العرب البائدة ، قص علينا القرآن الكريم من خبرهم ما هو موضع عبرة ، مثل :

● عاد : « إرم ذات العماد . التى لم يُخلق مثلها في البلاد . »
كان مترهم بالأحقاف ، بعث الله فيهم أخاهم هوداً رسولاً ونذيراً ، فكذبوه وعصوا واستكبروا في الأرض بغير الحق . فأرسل عليهم الريح العقيم « تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » .

● « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » دعاهم نبيهم صالح إلى عبادة الله فكذبوه ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يَغْتُوا فيها ^(٢) .

● وسبأ الذين كان لهم في مسكنهم آية : « جنتان عن يمين وشمال » وقد ازدهرت الحضارة في مملكة سبأ بالجنوب ، حتى غرتهم الدنيا وأفسدهم البطر والترف ، واجتاحهم سيل العرم وبذلوا بجنتيهم « جنتين ذواتى أكلٍ خَمَطٍ واثليّ وشىء من سيدٍ قليل » ^(٣) . ونزلت قبائل في نجران والجوف اليمنى وحضر موت وساحل عمان . ونزحت أخرى ، من عرب الجنوب القحطانية ، في هجرات جماعية قديمة فاستقرت في منازل عَمَرَتها ، ومنها ما خالط قبائل من عرب الشمال كقبيلة كندة التى ظهرت على بنى أسد ، وجرحهم التى نزلت بمكة وأصهر إليها إسماعيل ، جد العرب العدنانية .

ونزل بنو قيلة ، ولد عمرو بن عامر : آخر ملوك سبأ ، في شبال الحجاز فعمروا يثرب

(١) مطلع القصيدة :

ألا أبلغا ذبيان عنى رسالة فقد أصبحت عن منج الحق جائرة
انظرها في (ديوانه) وفي (العقد الثمين) .

(٢) انظر الآيات في عاد وثمود ، في سور :

الفجر ، هود ، الأحقاف ، القمر ، الحاقة ، النمل ، الداريات ، الأعراف ، فصلت ، إبراهيم ، النجم ، الحج . وما بين الأقواس هنا ، هو من نص كلمات الذكر الحكيم .

(٣) انظر الآيات في سورتي (سبأ ، والنمل) .

وهم الأوس والخزرج^(١) .
ونزل إخوتهم « بنو جفنة بن غسان » بأرض الشام ، فأسسوا بها إمارتهم العربية على حدود الروم . كما نزل المناذرة بالحيرة ، وقامت إمارتهم على حدود الفرس .
وفي الوادى الأجرد ، بين جبال الحجاز الصخرية ، كانت « مكة » أم القرى العربية ، معبداً لله تعالى من قديم الحقب ، ثم آلت إلى مركز للعبادة الوثنية : دين القبائل العربية فى شتى أنحاء الجزيرة .

وقد طال عليها الليل ، ولم تستطع طقوس الوثنية على كثافتها وغلظها ، أن تحجب سنًا البيت العتيق ، أقدم بيتٍ عبَدَ فيه الله على الأرض ، ولا أن تغض من حرمة التي لم يَزِدْها كُرُّ الغداة ومُرُّ العشيِّ إلا عراقة ورسوخاً .

كما لم يستطع الضجيج الصاخب فى مواسم الحج إلى مكة وملتى القبائل فى أسواقها بمُكاظ والمِجَنَّة وذى المجاز ، أن يطوى ذكريات التاريخ الدينى لأُم القرى ، من يوم أن رفع « إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » وطهَّراه للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود . وتتابع الحقب والدهور ، وهذا البيت العتيق حرَّم آمن ، ومثابة حج القبائل وموضع تقديسها . . .

* * *

وبقيت البيدُ وراء هذه الأطراف المعمورة والمنازل الآهلة والخواضر من القرى ، فى عزلتها الهيبية المرهوبة ، لا تجتازها القوافل فى رحلاتها للحج والتجارة ، إلا بحماية من العرب البدو سادة الصحراء ، ومع أدلاء منهم خبراء بمجاهل الدروب وعمياء المسالك فى الفقر الموحش .

وظل للصحراء سلطانها المادى والمعنوى على الحضريين ، تفرض عليهم تفسيرها للظواهر والغوائل ، وتسيطر على تصوراتهم بخيالها الطلق ورؤيتها للكون والحياة ، وتشحن وجدانهم بما لديها من أسرار الفقر .

وكما ردُّ الضاربون بالفلاة غوائل الطريق إلى ما جسَّمه الوهم من أفاعيل الغيلان ، شقَّ عليهم وعلى الحضرة فى القرى والإمارات ، تحليل الإلهام الشعرى وفسارة الكهان ودهاء السحرة ، فردُّوها إلى أصحاب من الجن يتصل الكاهن والساحر بها فى عالمها السفلى

(١) انظر تفصيل ذلك كله فى : كتاب (تاريخ مكة) للأزرقى وكتاب (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى)

الحق ، وإلى توابع منها تأتي الشعراء من وادى عبقر ، فتلقى إليهم عبقرى النغم وروائع القصيد . قال راجزهم :

إني وإن كنتُ صغيرَ السنِّ
وكان في العينِ نبوءٌ عني
فإن شيطاني أميرُ الجنِّ
يذهب بي في الشعر كلَّ فنِّ

وقال الشاعر الخزرجي المخضرم « حسان بن ثابت » من شعر جاهليته بيثرب :
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْبَا نِي فَطُورًا أَقُولُ وَطُورًا هُوَّةُ

* * *

وخلفوا رؤاهم وأحلامهم وهواجسهم في وجدان الجزيرة ، ميراثاً يتلقاه خلف عن سلف ، وتراثاً يتناقله الرواة جيلاً بعد جيل ، لم يُفقد من تأثيره شعراء إسلاميون من بدو وحضر ، وفيهم مولدون ولِدُوا وعاشوا في الأقطار التي فتحتها الإسلام ، في بيئات بعيدة أقصى البعد عن بوادي الجزيرة وفلواتها .

قال « ذو الرمة » الشاعر الإسلامي البدوي ^(١) :

ورملي لعزفِ الجنِّ في عُقداته هريُّ كضرابِ المغنين بالطبلِ
وقال « جبران العود النخري » ^(٢) يصف إحدى لياليه :
حَمَلْنَ جِرَانَ الْعُودِ حَتَّى وَضَعْنَهُ بَعْلِيَاءَ فِي أَرْجَائِهَا الْجَنُّ تَعْرِفُ
وَقَلْنَ تَمَتَّعْ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ غَدًا أَوْ مُسَيِّفٌ
وقال « أبو النجم » ^(٣) مرتجذاً :

إني وكلُّ شاعر من البشرِ
شيطانه أنثى وشيطاني ذكْرٌ

وقد أضافت هذه الأجيال الإسلامية إلى تراث الشعر الجاهلي من شطحات خيالها وتصورات وهمها ، ما وصل إلى القرن الرابع الهجري ، فجمع منه « المرزباني » كتابه في

(١) غيلان بن عقبة . ديوانه مطبوع في (المنفى) ببغداد .

(٢) عامر بن الحارث النخري . ديوانه مطبوع في دار الكتب المصرية .

(٣) الفضل بن قدامة ، من أشهر الرجاز في العصر الأموي . انظره في : (الشعر والشعراء ، ومعجم الشعراء) .

(أشعار الجن) (١).

وفي القرن الخامس الهجري ، كان الشاعر الأندلسي « ابن شهيد » في أقصى المغرب ، يصوغ من رؤاه مباراة شعرية ملهمة بين تابعه وتوابع مقدّمى الشعراء وزوابع مشهورى الكتّاب ، وقد أفحمهم جميعاً (٢).

حين كان « أبو العلاء المعرى » في محبسه بمجرة النعمان بالمشرق ، يملئ في (رسالة الغفران) ما تمثله من مشهد لقاء بشاعر من الجنّ المؤمنين ، وينطق على لسانه بقصيدتين مطولتين ، فيها عجائب وغرائب مما رسب في عقلية بيئته من تصورات لعالم الجن (٣).

* * *

لكن بادية الجزيرة ، هي التي أعطت الأجيال من العرب ، كذلك ، سليقتها اللغوية النقية ، وبيانها الذى طوعته للتعبير عن وجدانها ورؤاها ومنطقها . أعطتنا العربية الفصحى ، بعد أن صقلتها على المدى الطويل بحسها المرهف ، فأوصلتها إلى أواخر الجاهلية : قد أهملت الحوشى والغريب والثقيل ، وما تنافر من حروف اللفظ أو كلمات الجملة . وهذبت صيغها بالإعلال والإبدال والقلب والإدغام والحذف ، واستقرت قواعد مطردة للتأنيث والتذكير ، وللأفراد والثنائية والجمع ، والتعريف والتشكير . وتصرفت في المادة اللغوية للملاحظ من فروق الدلالات ، وتصرفت في الفعل لضبط زمن وقوع الحدث ، وتمييز المعلوم من المجهول . واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارات والأسماء الموصولة وحروف المعاني ، ببالغ الدقة والإحكام . كما حكمت المعاني بصيغ المشتقات ونسق الألفاظ في الجمل ، وسياق العبارة وعلامات الإعراب . وتوسعت في المجال لتنمو وتلبى حاجات الحياة ، فنقلت الألفاظ من استعمالها الحسى إلى المعنوى ، وتطورت أساليبها من قديم ، فخرجت عن معانيها في أصل الاستعمال اللغوى . إلى معان بيانية وأساليب بلاغية للملاحظة فنية جمالية . كالمعروف من خروج أساليب الخبر من دلالتها الأصلية الأولى إلى الدعاء والاسترحام والتفجع والشكوى . وخروج أساليب الأمر

(١) ذكره ابن النديم في (الفهرست) في مصنفات أبى عبد الله المرزبانى ، الخراسانى الأصل البغدادى المولد والوفاة (٢٩٧ - ٣٨٤ هـ) . وذكره كذلك أبو العلاء في (رسالة الغفران) صفحة ٢٩١ طبع الدخائر .
(٢) انظر (التوابع والزوابع) لابن شهيد الأندلسى ، في كتاب اللخيرة لابن بسام . ط جامعة القاهرة .
(٣) انظر المشهد في لقاء ابن القارح بالشاعر الجنى أبى هدرش ، وقصيدتى أبى العلاء على لسانه ، في (رسالة الغفران) ط الدخائر . دار المعارف القاهرة .

والنهي والاستفهام ، إلى الزجر والتعجب والتقرير والإلزام أو الجحد والإنكار ، والعدول بالتعبير عن أصل استعماله في اللغة عن طريق الاستعارة أو المجاز أو الكناية والرمز .
ووصل إلينا الشعر الجاهلي بعد أن مر بمراحل طفولته التي غابت عنا ، مُحكَّم الإيقاع متسق النغم سخي الإلهام . تمضي القصيدة منه حتى تتجاوز أكثر من مائة بيت عدداً ، دون خلل في نسق النظم وضوابط الإيقاع .

وبلغت العربية من ذلك كله ، مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة ، استطاع معه العلماء في عصر التدوين ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وأحكام البلاغة وأساليب البيان وضوابط العروض .
وفي الجاهلية ، حددت العربية من قديم موقفها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتاً في جهود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يغزوها ويمسح أصلها .

فبقدر ما توسعت في الاشتقاق والمجاز ، ضيقت باب الأخذ من الألسنة التي خالطتها بطريقة أو بأخرى ، صوناً للسانها . فاستغنت إلى أقصى المدى بتطويع الألفاظ الفصحى لكي تؤدي معاني ما احتاجت إليه ، أو ما استملحته وانتخبته من الألفاظ الأعجمية . ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية ، إما بإلحاقه بأقرب صيغ الفصحى إليه ، أو بتغيير طريقة نطقه ، إشعاراً بتعريبه . وقد استطاع علماء العربية في القرن الثاني للهجرة ، وما بعده ، أن يستخلصوا قواعد لمعرفة العرب والدخيل ، تشهد بأن الأمر لم يُترك لفوضى العشوائية والارتجال ، بل خضع لنهج واضح التزمته العربية فيما تأخذ من الألسنة التي خالطتها^(١) .

ثم كان أن مارست العربية في جاهليتها المعروفة لنا تاريخياً وتراثاً ، حركة تطور باللغة الأهمية ، إذ اتجهت إلى استصفاء لغة مشتركة ، شبه رسمية ، تلتقي بها القبائل على اختلاف لهجاتها ، فيما يجاوز النطاق المحدود للقبيلة . وقد اختيرت لغة قريش ، بحكم موضعها من أم القرى والبيت العتيق ، وبما أتيح لها على المدى الطويل من انتقاء مختار الألفاظ والصيغ من لغات القبائل العربية الوافدة عليها في مواسم الحج الدورية التي كانت في الوقت نفسه مواسم أدبية شعرية ، وأسواق تبادل لغوي وتجاري . قال « ابن فارس » في كتابه (الصاحي) في فقه اللغة :

(١) انظر : الزهر في علوم اللغة السيوطي . ومعه كتابي (لغتنا والحياة) . المعارف

[كانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاضرون إلى قريش في دارهم . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السنن ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصنى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلاتقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب] .
ونقل جلال الدين السيوطي في كتابه (المزهر) قول الفارابي :
[كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً وإبانة عما في النفس]

* * *

وتجلت آية الرحمن في الإنسان علمه البيان ، في لغة بدوية لقوم أميين ، ما تزال تهر علماء اللغة العصريين ، بما كان لها في جاهليتها الأمية من حس مرهف وذوق مصفى ونهج أصيل ، تسامى بها أرقى لغات العالم المتمدن ، في دقة الدلالة وإحكام الصياغة واطراد قواعد التصرف ، وخصب المجاز وعلو البيان . .
فما آذن ليل الجاهلية بمغيب ، حتى كانت هذه اللغة الفصحى أهلاً لشرف نزول المعجزة القرآنية بها . قادرة على أن تواجه أكبر حركة تحول لغوى عرفه التاريخ منذ كان ، بتعرب الشعوب التي دخلت في الإسلام بعد الفتوح الكبرى . .

* * *

فلتسهل لنجتلي نور الفجر الصادق الذي بلغت فيه آية البيان ذروة الإعجاز ، وبدأت به لغة العرب حياة رحة الآفاق بعيدة الآماد ، متجددة الطاقة مباركة العطاء . .

الفَجْرُ الصادق

«هُدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان»

«هو الذى بَعَثَ فى الأميين رسولاً منهم يتلو
عليهم آياته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مبين » .

[سورة الجمعة] صدق الله العظيم

ذات ليلة من أخريات رمضان ، بعد ميلاد المسيح عليه السلام ستة قرون وعشر سنين ، كف أم القرى صمتاً لاغب مكدود ، لا يُسمع فيه سوى أنفاس الليل مختلطة بهمهمة صلوات وثنية ، كانت ماتزال تتسلل من البيت العتيق .
وقرر رمضان لم يبرز بعد ، فليس على الأفق المعتم سوى ضوء شاحب نحيل ، من نجوم تحجبها عن مكة جبالها الصخرية الشم .

ونامت الدنيا لا تلقى بالاً إلى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، إذ أوى إلى غار هناك مستغرقاً في تأملاته ، يلتمس في العتمة الداجية شعاعاً من نور الحق وينشد في خلوته قسماً من هدى ، وخواطره تحوم حول مقام إبراهيم في البيت الذي آل مع الزمن ، إلى مئوى لأوثانٍ ممسوخة وأصنام شوهاء بلهاء .

والتاريخ مشغول عن هذا الأمل الهاشمي ، بأحداث جسام خارج الجزيرة ، مشدود البصر إلى نذر الانهيار في عالم يريد أن ينقض . يتابع الجولات الأخيرة للصراع بين قطبي ذلك العالم القديم ، حيث كانت دولتا الفرس والرومان تحوضان حرباً طاحنة على مراكز القوى والنفوذ ، وإحدى الدولتين قد أعشت نار المجوسية بصرها وبصيرتها لما عاد يعنها سوى أن تجعل من ساحة الشرق كله معبداً لتلك النار العقيم ، تصلاها شعوبه بالقسر والإكراه .

والأخرى قد أئتمنتها جراح الحرب وهدتها أمراض الشيخوخة ، واستنزفت بقايا قوتها فتنة الصراع الطائفي بين القائلين بناسوتية السيد المسيح والقائلين بلاهوتيته ، فتهاوى النسر الروماني على الأرض يحثم على صدور خلق الله ويكتم أنفاسهم ، ويتسلط على مستعمراتهم بالعسف والطغيان والاضطهاد ، في محاولة تستبقي له من الهيبة ما يسترهونه ، ويعوضه عن قواه المستنزفة ومجده الآفل .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، فلول من عصابات يهود ، تربص بهم جميعاً الدوائر لترث ملكهم ، وتجعل من الدنيا معبداً للوثن الأصفر ، يستأثر مدنته اليهود بمفاتيحه ، ويتولى أحبارهم شرح طقوس عبادته ، بعد أن عقوا الموسوية وكفروا برسولها ، وكادوا للمسيحية واثمروا بنبيها ، وحرفوا كلمات كتابهم عن مواضعها ، لتلبي ما تأصل في خلقتهم من شر وخبث وجشع وأثرة ، وتستجيب لما في طبيعتهم من قسوة وحقد وعداوة للبشر .

وغير بعيد من غار حراء الذى شُغِلت عنه الدنيا والتاريخ ، هجعت مكة تجترذكريات مجدها الغابر وقد طوته وثنية ضالة عمياء ، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلتي الوعى ، لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الجاثم .
ونامت قريش ، لا تحسب حساباً لهذا الهاشمي المختلى فى غار حراء ، وقد ألفت أن تراه ينسحب إليه من ضجيج المجتمع المكى ، عازفاً عن تلك الأوثان التى يعبدها قومه لأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين ، وماذا على القوم أن عزف « محمد بن عبد الله » عن أوثانهم ورفض أن يعبدها مع الله أو يعبد الله فيها ؟ ! كذلك فعل مثل محمد من الخنفاء ، ليس عددهم بالذى يدخل فى الحساب بزيادة أو نقصان ، فى زحام أفواج الحجيج من قبائل العرب جميعاً ، ينثالون إلى مكة من كل فج عميق ، ليطوفوا بأوثانهم فى الكعبة ويؤدوا طقوس عبادتها ، موسماً بعد موسم ، وجيلاً من بعد جيل . .

* * *

وأوغل الليل قبل أن يطلع فجر هذه الليلة من رمضان ، وينشر نوره على القمم والسفوح ، والبطاح والقيعان والأودية . .
ومع نور الفجر البازغ من الليلة المباركة ، تجلى الوحي للمختلى فى الغار ، وألقى إليه كلمة الله : « اقرأ » .
وما كان محمد بقارئ ، وما كان يتلو من كتاب ولا يخطه يمينه ، من قبل أن يتلقى آيات الوحي الأولى :
« اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم » .
وبدأ تاريخ جديد :

الرجل الذى سرى فى الليل إلى غار حراء على مألوف عادته منذ أنكر موضع الأصنام فى البيت الحرام ، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تمضى هكذا على سفّه وضلال . .
خرج مع الفجر الصادق من الغار ، نبياً مبعوثاً بجنتام رسالات الله .
والكلمات الأولى التى تلقاها فى ليلة القدر هذه من وحى ربه ، كانت مستهل كتاب معجز ، وآية بشر رسول ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان ، وصنعت أمة وقادت حضارة .

* * *

من الغار خرج المصطفى ، والنور ملء قلبه ، والكلمات ملء مسمعه ، وانجبت به خطاه نحو داره في جوار الحرم ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق نور الفجر الصادق ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق بسناً وضاء ، يكشف عما تكدّس في حرمة من أصنام ، فتبدو على حقيقتها العارية ، صماء بلهاء . وقد كان لها من ظلام الليل ستر كثيف يخدع البصر والبصيرة . ويزيف الرؤية .

وتلا المصطفى كلمات ربه في قومه الأمين الذين لم يعرف التاريخ لهم كتاباً قط من قبل المبعث . وإن عرف فيهم صلابة البداوة ونخوة الطبيعة التي لم تفسدها أمراض المدنية وآفات الترف . ودعا إلى التوحيد ، جُفَاءَ الوثنيين الذين بعدُ عهدهم بالحنيفية ، وطال عليهم الأمد وهم عاكفون على أوثان وأصنام يخلقونها ويعبدون خالقهم فيها ، تجسداً لما شق عليهم إدراكه من الجلال الأسنى والحق الخالص والكمال الأسنى والمثل الأعلى .

* * *

على نور الفجر الصادق ، عرف الأميون طريقهم وخرجوا من ظلمات الجاهلية ، فما مضى على المبعث عشرون عاماً حتى كان عرب الجزيرة كلهم قد نبذوا الأوثان وحطموا الأصنام ، وعبدوا الله وحده مخلصين له الدين حنفاء . .

ومن هدى القرآن تعلم الأميون الكتاب والحكمة ، فأمنوا بإله واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . . بعد أقل من نصف قرن ، من ليلة القدر المباركة ، كان هؤلاء الأميون الذين تعلموا الكتاب والحكمة ، يطفئون نار المجوسية ، ويطلقون سحر الكفرة الفجرة ، ويدكون صروح الطاغوت ، وينطلقون في الآفاق من مشرق ومغرب ، يحملون إلى الدنيا عقيدة التوحيد المحض والتتريه المطلق ، وينشرون في العالم الكتاب والحكمة . . ويبلغون البشرية رسالتهم التي ناط بها القرآن أمته ، في آياته المحكمات :

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

[البقرة : ٢٥٦]

« الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

[الحج : ٤١]

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

[آل عمران : ١٠٤]

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » .

[آل عمران : ١١٠]

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

[الحجرات : ١٣]

« فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » .

[الرعد : ١٧]

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

[النكوت : ٤٣]

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

[فاطر : ٢٨]

وبدأت أمة القرآن من القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد المسيحي ، تقود البشرية لتخرجها من ظلمات الجهالة والامية ، وتحررها من عقدة الخصومة بين الدين والعلم ، بما من الله به عليها من عزة التوحيد وكرامة العقل . فانطلق علماء الدولة الإسلامية في عصر قيادتها للحضارة ، آمنين من إصر الكهنوتية مطمئنين إلى تأييد عقيدتهم للعلم وإكبارها العقل الذي هو من جوهر الإنسانية الناطقة ، إذا تعطل أو جمد ، مُسخ الإنسان وهبط إلى دونية البهيم العجماء :

« إِنْ شَرُّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » .

« لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

وما ارتاب علماء الإسلام في أن العلم في عقيدتهم فريضة وعبادة وجهاد ، وهم ينظرون في الظواهر الكونية بعقلية جديدة متحررة ، لاجتلاء عجيب السنن الكونية

المحكمة ، ويمارسون التجارب العلمية العملية ، لتحقيق آية الله فيما سخر للإنسان : « ما في السموات وما في الأرض جميعاً » فقدّموا جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ودخلوا التاريخ العلمى رواداً لآفاق لم يستشرفها أحدٌ قبلهم ، فكانوا هم الذين أصّلوا المنهج التجريبي الاستقرائي ، وأعطوا الإنسانية أوليات الكتب العلمية في الطبيعيات والرياضيات ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة العملية والرصد الفلكي والخبرة الجغرافية والملاحية . وبفضلهم تم نقل العلوم إلى مجال البحث التجريبي الذي لم تعرفه الفلسفة اليونانية بمنهجها العقلي النظري .

وكان رصيد نخبة العلماء المسلمين وتجربتهم وتراثهم العلمى ، قاعدة الأساس لعصر العلم الحديث الذى حقق تقدماً باهراً فى الغرب الأوربي ، انطلاقاً من عصر الإحياء (الرينسانس) الذى قام على تراث الحضارة الإسلامية وتزوّد بعطائها ..

* * *

شُرّفت العربية بتزول القرآن بها ، كتاباً عربياً مميّناً : معجزة بشير رسول ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . ففرض إعجازه على العرب والفصحى لغتهم سليقة وفطرة ، والبيان طوع السنتهم .

وكتبت حياة جديدة رحبة الآفاق ، لهذه العربية التى ظلت أبداً إلى ليلة القدر ، منعزلة فى بواديها وقراها ، محصورة فى نطاق أهلها العرب الأميين : من القرآن الكريم ، تلقت العربية زاداً سخياً مباركاً من أساليب البيان المعجز ، ومدداً من الدلالات الإسلامية التى استحدثها القرآن لألفاظٍ من عصرها الجاهلى ، كالإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والبصر والعمى ، والساعة والقيامة والحساب ، والجنة والنار . . .

ثم كان التحول الفذّ ، الذى لم يعرف له التاريخ مثيلاً قط ، وهيئات أن يعرف مثله أبداً :

شعوب العالم القديم ، كانت قد خضعت على طول ألف عام ، للاستعمار الأجنبي . وقد حاول الغزاة من رومان وفرنس ويونان ، أن يفرضوا عليها عقائدهم وألسنتهم وقومياتهم بالقسر والإكراه والإرهاب ، فواجهتها الشعوب بالتحدى والرفض ، بحيث ظلت على المدى الطويل ، عقائد أجنبي مستعمر ، ولغة دواوين وثقافة دخيل ، يرتن بقاؤها بما يحمياها من سلطة الحكم وجبروت الاحتلال :

من عجب أنها ماكادت تصغى إلى دعوة الإسلام من حَمَلته الفاتحين ، حتى استجابت له طواعية ، وحملت لواء دينها الجديد داعية إليه مجاهدة في سبيله ، مشاركة في حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية ، حتى بلغت بها أقاصى المشرق والمغرب . ونبتت كل ماضيتها لتبدأ تاريخها الإسلامى ، أمة واحدة .

وفي نصف قرن فحسب ، كانت هذه الشعوب قد هجرت ألسنتها الأولى ، واختارت لغة القرآن لساناً لها ، وهى التى عصبت الزمن الطويل على المستعمرين الأجانب ، ففصوا عنها لم يخلفوا من بعدهم لغة لاتينية أو فارسية أو رومانية !

وسارت العربية مع القرآن الكريم حيث سار ، فإذا تراث الجاهلية من قصائد البدو وأراجيز الرعاة وأحاديث الفتيان فى مسامر القرى ودروب الصحراء ، وموقف الشعراء فى المواسم والأسواق ؛ تغدو تراثاً غالياً يلتهمه الرواة الإسلاميون من بوادى الجزيرة التى احتفظت بنقاء عريبتها ، ويشدون من أجله الرحال إلى منازل القبائل ، ليأخذوا من أفواه الأعراب ماوعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد .

ثم عكفوا عليه ، يدونونه ويصنفون منه معجم ألفاظ الفصحى ، لغة الدين والدولة ، ويستقرئونه ليستنبطوا منه قواعد نحوها واشتقاقها وتصرفها ، وخصائص بيانها وموازين شعرها .

واستوعبت هذه العربية ، ما عرّب المترجمون من تراث الفلسفة اليونانية ونظريات العلم والفكر القديم ، فأدّته عرى اللسان إسلامى الروح . .

ووسّعها ، فى طواعية مرنة وحيوية فذة وأصالة راسخة ، أن تستجيب لاتساع آفاق الدولة الإسلامية ، واعية لدورها الجليل فى الوفاء بحاجات الحياة اللغوية للحضارة الإسلامية الرائدة ، ومدرّكة مغزى كونها لغة أمة قوية قائدة ، ولسان شعوب ذات عراقة فى المدينة والفكر والثقافة .

وما يزال التاريخ فى عجب من أمر هذه العربية : كيف استطاعت بعبقريّة فذة ، أن تأخذ مجراها الحيوى بين الأصالة والتطور ، لتكون لغة الدين والعلم والأدب والثقافة ، لشعوب تفاوت ميراثها الحضارى ، واختلفت سلاتقتها اللغوية باختلاف ألسنتها الأولى ، وتحقق وجودها اللغوى محافظة على أنقى أصالتها العريقة ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء ؟ !

ومن قبل أن تخترع المطبعة في الدنيا ، كانت دور العلم والحكمة تقوم على ساحة العالم الإسلامي من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، صروحاً شامخة للمعرفة ، ومنارات هادية في ليل العصور الوسطى .

ومن قبل أن تقرأ الدنيا أول كتاب مطبوع ، كانت هذه الدور الإسلامية كنوزاً عامرة بملايين الذخائر من الكتب المخطوطة ، في شتى فروع العلم وضروب المعرفة وفنون الثقافة . . .

ثم تغيرت الدنيا ، وتحول متجه الحضارة من الشرق الإسلامي إلى الغرب الأوربي ، على المعابر التاريخية التي نقلت تراث علومنا وكنوز حضارتنا : البوسفور وصقلية والأندلس . . .

وتعرض العالم الإسلامي ، مشرقه ومغرب ، لتيارات غزو جائح مذهبي وفكري ولغوي ، وعسكري واقتصادي . .

وبقيت العربية تتحدى ذرائع القهر والضياع ، وتفرض وجودها الحيوي على الدنيا . .
وبقي القرآن ، ويبقى لنا أبداً ، يحمي وجود أمتنا ويقود مسراها في ظلمات الخن وغواشي الخطوب ، ويخلو بصيرتها بنور العلم والحكمة ، ويهدي خطاها فيما تحمل من تكاليف وجودها الحر الكريم ، جهاداً في سبيل الله ، ضد الباطل والشر والقيح :
« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

صدق الله العظيم

وراء الأسوار
« علم الإنسان ما لم يعلم »

من عجب أن صحراء الجزيرة العربية ، مهد العربية والإسلام ، ظلت بمعزلٍ عن كل هاتيك الأحداث الكبار ، لا تكاد تحس حركة سير الزمن بلغة العرب وأمة القرآن ، ولا تدرى شيئاً عما ارتدنا وارتاد غيرنا من جديد الآفاق ، واكتشفنا واكتشفوا من مجاهل الكون وأسرار الحياة وموازين القوى ، وسخرنا وسخروا بإذن الله ، من ظواهر الطبيعة وخواص العناصر . . .

مضت قرون أربعة عشر ، وملايين المسلمين في شتى أقطار الأرض يولون وجوههم حينما كانوا شطر المسجد الحرام في أم القرى ، مصبحين وممسين وعشيّاً وحين يُظهرون ؛ ومئات الألوف منهم يسعون إليه في موسم الحج من كل سنة قرية ، ملبين ضارعين :
 ليك اللهم ليك لا شريك لك ليك
 غير أنهم قلما يتجاوزون الحجاز إلى نجد ، فضلا عن أن يوغلوا في الدهناء والربع الخالي . . .

وكلما هل هلال رمضان ، احتشدت مواكبههم لرؤيته ، وبدعوا به موسمهم الديني الكبير صياماً ومجاهدة ، احتفالا بالشهر الذي بدأ فيه نزول القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وقلوبهم تنزو في خشوع إلى غار حراء بمكة ، حيث بزغ نور الفجر الصادق .
 وصحراء الجزيرة ، على مسار تلك القرون ، قائمة هناك بكل صمتها العميق وسرها المحجوب ، تترامى وراء أسوار جبالها الحاجزة عن نهامة وساحل البحر الأحمر ، ممتدة إلى شطوط الخليج ومشارف اليمن في عزلة موحشة : لا تعرفها دنيانا وإن تكلمت بلغتها ، وبابعت نبياً من صميم قبائلها ، وآمنت بدين حمله إليها عربٌ خلّص من جند الإسلام الأولين .

بقيت الصحراء هناك ، لا يكاد يلم بها أحد سوى جماعات من البدو الرحّل يهيمون في فلواتها ملتصين بمواقع الغيث ومنازل المطر ؛ وعلماء الاستشراق في كبريات العواصم من عالم اليوم ، عاكفون على جمع ذخائر تراثها ودرس شخصيتها ، وطلاب الجامعات والمعاهد في المشرق والمغرب يدرسون أصيل الفصحى ويحفظون أمثال البدو وأراجيز الرعاة ، ويعرفون وقائع مهلهل وعنترة ، ومغامرات الصعاليك وقصص الفتيان ، ويسهرون على نار حاتم والمخلق ، ويشجهم على بعد الديار بكاء الأطلال ومراثي

الأحباب ، ويكادون يسمعون رغاء الإبل وتصهال الخيل ونزع الأوتاد عند شد الرحال ، كأنهم مع الحارث بن حلزة البكري إذ يقول .

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصبهاجٍ خيلٍ ، خلال ذلك رغاء
بقيت الجزيرة ، فيما عدا أطرافها وقراها ، نائية مهجورة غامضة مقنعة ، لا تريد أن
تتصل بالدنيا خارجها أو تبيع حماها لغير أهلها الأعراب البداءة . . قد آثرت العزلة على
الاتصال بالدنيا ، وأقامت بواديها الواسعة ورمالها المترامية وصخورها الصلبة ، أسواراً
منيعاً تحمي أعرافها وتقاليدها وعاداتها ، غير مستجيبة لتطور الحياة ولا مكترثة بسير الزمان
[فلو أن أحد العرب القدامى عاد إلى تلك البقاع من الجزيرة لما وجد ما يشير دهشته :
سيجد العرب في خيامهم السود ، والبدو الرحل على ظهور إبلهم ، والرعاة يستسقون .
سيجد كل شيء في مكانه كما تركه ، وملابس الناس كما كانت ومظهرهم الجسافي لم
يتبدل]^(١).

الدنيا الجديدة ، من وراء أسوار الجزيرة ، انتقلت من عصر البخار إلى الكهرباء
فاللدة ، ومن عصر القاطرة والباخرة إلى السيارة والطائرة ،
والجزيرة في عزلتها العنيدة تتحدى كل تغيير وتمتنع على كل تطور . وتترامى صحاريها :
الدهناء والنفود والربع الخالي ، من شرق نجد ومن شمال وجنوب ، حداً فاصلاً بين عالم
اليوم ، وتلك الصورة الباقية من قديم الزمان .
حياة فطرية بدوية ، لا تكاد تختلف في شيء عن تلك التي عرفتها العرب البائدة في
قديمها الغابر ، فيما عدا الإسلام الذي اعتنقته الجزيرة ديناً من زمن المبعث ، فكان آخر
عهدها بالأصنام والأوثان .

« بحار من الرمال الناعمة تكاد تبتلع المارة لنعومتها وتخلخلها ، وقبائل من البدو الرحل
الرعاة ، المطرُ محور حياتهم ومشغلة بالهم ، فأهل نجد لا يأنسون شيئاً إذا رزقهم الله المطر
تحيا به زروعهم وأنعامهم . أما الصحراء الجنوبية فلا يكاد يصيبها الرذاذ ساعة واحدة كل
ثلاث سنين أو أربع »^(٢).

(١) ر. ف. بوللى . (الرسول) ترجمة محمد فرج وعبد الحميد السحار .

(٢) السيد حافظ وهبة : جزيرة العرب : ص ٦ .

وهم مع ذلك راضون عنها متشبثون بها ، وربما عرضت لبعضهم فرصة الحياة الناعمة في حضر ، فرفضوا أن يستبدلوها بحياتهم الشاقة القاسية . الحشنة الجافية . ويفرض أنها حياة تقصر الأجل ، فهي تهب مع العمر القصير نعمة الحرية والانطلاق . والآجال ، بعد كتاب موقوت على الناس جميعاً ، بدوهم والحضر « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » . ولعل فيهم من لا يزالون يحفظون ، مع ما يتلون من آيات الفرقان في حتمية الموت ، أقوالاً لشعرائهم الجاهليين جرت مجرى الأمثال ، كقول الشاعر الشاب « طرفة بن العبد » البكري :

أرى الموت أعدادَ النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غدٍ
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتي لكألطول المرخي وثنياه باليد
وقول شيخهم الحكيم « زهير بن أبي سلمى » :
ومن هاب أسباب المنايا يتلته ولو رام أسباب السماء بسلم
وقول « السلكة » ، أم السلك « الفتي الجاهلي الصعلوك ، تبكي مصرعه :
راح يبغي نجوة من هلاك فهلك والمنايا للفتي رصد حيث سلك
وشهدت دنيا في العصر الحديث مثل هذه المفارقات :

في ربوع النيل والشام وبلاد النهرين وإيران ، مما يلي حدود الجزيرة العربية غرباً وشمالاً وشرقاً ، قصور باذخة ، ومبان راسخة منها آثار تبلغ من العمر ألوف سنين . وغير بعيد منها في الجزيرة العربية بدءاً رُحَّل يسكنون الخيام المتنقلة معهم حيث نزلوا ، لا يعرفون في القرن العشرين ، فائدة للأبواب والنوافذ الخشبية « حتى إن البدو الذين كانوا في جيش الملك حسين^(١) إبان الحرب العظمى ، كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف ، نزع خشب النوافذ والأبواب لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً للقهوة أو الطبخ أو التدفئة . وبدؤ نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً : فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل في ثكنة جرول ، اكتشفت أن النوافذ والأبواب الخشبية تنقص بالتدريج ، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة . وأخرجهم جلاله الملك ثوا من الثكنة ، وأسكن الحضر

(١) الملك حسين ، الشريف الهاشمي ، أبو فيصل الأول وعبد الله ، ملكي العراق وشرق الأردن . كان الشريف حسين ملكاً على الحجاز حتى هزمه النجديون سنة ١٩٢٥ . ودخل الحجاز مع سائر مناطق الجزيرة في المملكة العربية السعودية .

فيها . والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه البدو عن النوافذ والأبواب»^(١) .
وكان الحجاج من الأقطار الإسلامية المجاورة للجزيرة ، يسعون إلى حدودها ، راكبين
البواخر والسيارات والقطر الحديدية ، فإذا بلغوا الحجاز تنقلوا بالجمال من حيث جاءوا ،
إلى مكة والمدينة .

وحين كان المنطاد (جراف تسيلين) يخلق في أفق الشرق الأوسط سنة ١٩٣٠ م ، كان
مشايخ نجد وأهلها بعامة ، يرون التلغراف اللاسلكي من عمل الجن ، ويشفقون على
عاهلهم « الملك الراحل عبد العزيز آل سعود » من عواقب الإصغاء إلى جند الشيطان الذين
يزينون له استخدام السيارة واللاسلكي !

حدث « السيد حافظ » وهبة أن جلالة الملك أوفده إلى المدينة سنة ١٩٢٨ م ، مع
عالم من علماء نجد ، للتفتيش الإداري والديني .

« فجرى فكرُ التلغراف اللاسلكي وما يتصل به من المستحدثات . فقال الشيخ :
لاشك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن ، وقد أخبره ثقة أن التلغراف اللاسلكي
لا يشتغل إلا بعد أن تُذبح عنده ذبيحة ويُذكر عليها اسمُ الشيطان » :

« ثم أخذ يذكر لي بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان ! ولقد كان شرحي
لنظرية التلغراف اللاسلكي وتاريخ استكشافه ، ليس له نصيب من إقناع الشيخ . ولم أجد
أية فائدة من وراء البحث ، فسكتُ على مضض . . .

« وفي يوم من الأيام ، دعاني الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة ، عم الرسول - عليه
الصلاة والسلام - عند (أُحُد) حيث استشهد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه - وفي
أثناء الطريق ، أوقفت السيارة عند محطة التلغراف اللاسلكي . وهنا سألت الشيخ : لماذا
وقفت السيارة ؟ فأجبت : لئلا يرى التلغراف اللاسلكي ، فإذا كان هنالك ذبائح ودعوة لغير
الله ، فإنني سأحرقه مهما تكن النتيجة ، فالدين لله لا لابن سعود . وقد يكون الملك مخدوعاً
في أمر هذه التلغرافات ، وتذكر له الأشياء على غير حقيقتها .

« فقال الشيخ : بارك الله فيك » .

« فدخلت المحطة ، وبعد البحث لم يجد الشيخ أى أثر لعظام الذبائح وقرونها
أوصوفها . ثم أراه العاملُ طريقة المخابرة . وفي دقائق ، تبودلت المخابرات والتحيات بينه

(١) حافظ وقبة : جزيرة العرب .

وبين جلالة الملك في جدة . كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاةً للشك فيما كان يعتقد من عمل الشيطان في المخبرات . ولكنه ظن أني ربما دبرت هذه المكيدة بإيعاز من الملك . فزار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً في أوقات مختلفة بدون أن يخبر أحداً بعزمه ، فكان يفاجئ العامل بالزيارة ويسأله عن كل ما يغمض عليه . . وعندما وُضعت الآلة اللاسلكية واستعملت في الرياض - عاصمة نجد والمملكة - كان الناس يغري بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو الحد بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون من يأتونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح تُقدم لهم ، فلم يجدوا شيئاً . وقد أخبرني عامل المحطة أن بعض المشايخ الصغار ، كانوا يترددون عليه من وقت لآخر . لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير في مكة أو الرياض ؟ وكَم عدد أولاده الذين يساعدونه في مهمة نقل الأخبار ؟ فكان يجيبهم بأن ليس للشياطين دخل في عمله . وكان بعضهم يغريه بالنقد ، وأنهم سيكتمون السر !^(١) .

ولم تكن السيارات والدراجات ، أسعدَ حظاً من اللاسلكي فركوب الدراجة - واسمها في نجد : عربة الشيطان أو حصان إبليس - كان إلى عهد قريب إثماً ومعصية . فهي بدعة تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف ! وكان في الإخوان ، مشايخ نجد ، من يرون من حقهم ، أو من واجبه الديني ، منع هذا الإثم ، وضرب راكب الدراجة ولو كان من خدام الملك !

وحدث في نجد ، وقد مضى من القرن العشرين نحو عقدين ، أن كُسرَت أولُ ساعة دقاقة ، وعُدَّت من عمل الشيطان . ولم تكد هذه الفكرة تُشاع ، حتى قامت قيامة الإخوان من سكان البادية ، منكرين استعمالها ، وأعلنوا في الناس فتياهم : « إن أقل الأحوال فيها أنها بدعة » مما اضطر أحد المشايخ - الشيخ سعيد بن سحان - إلى أن يرد عليهم في رسالة نشرها سنة ١٣٣٤ هـ ، ١٩١٦ م . وطبعت في القاهرة سنة ١٩٢٣ م .

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب ، ص ٣٠٨ .

المعركة الكبرى

« من اليوم ، سنحيا حياة جديدة »

الملك عبد العزيز

في مثل تلك العزلة العتيدة عن الدنيا والحياة ، كان العرب من بوادي الجزيرة يعيشون بعقليتهم وأوضاعهم في حصون منيعة وراء الأسوار ، يشهرون السلاح في وجه كل تطور ، ويدفعون منكرات بدعه بالسيف .

وكانت تلك هي المعركة الكبرى التي خاضها عاهل الجزيرة الراحل « الملك عبد العزيز آل سعود » على كثرة ما خاض قبلها من معارك مشهودة . أذكر منها معركته التي استرد فيها « الرياض » من خصمه القوى اللدود « محمد بن الرشيد » شيخ قبائل شمر شمالي نجد . وكان جيش عبد العزيز الذي اقتحم به لمقل العدو في عاصمة نجد ، كتيبة من الرجال عدتهم أربعون ، أبقي أكثرهم عند سور البلدة ، وهاجم في خمسة عشر من صحبه ، عامل ابن الرشيد في حصنه بين جنده وحرسه ، فلما انتصف النهار حتى أذن المؤذن من الحصن : إن الحكم لله ثم لعبد العزيز .

والأخرى التي لقي فيها عبد العزيز ، الشريف حسين ملك الحجاز ، سنة ١٩٢٥ ، فهزم جنده بالطائف ثم دخل مكة فاتحاً دون حرب ، ومن بعدها دخل المدينة ، ثم جدة : آخر معاقل الأشراف .

لكن معركته الكبرى ، كانت هذه الثورة الإصلاحية ، يواجه فيها إخوانه وأهله وأصدقائه ورعاياه ، وما أشق النضال حين يكون ضد أخ وصديق ، من هؤلاء الذين انتصر بهم على الملك حسين وعلى ابن الرشيد !

ومثل هذه المعركة ، لا تعرف المواقف الحاسمة ، وإنما هي جولات تتعاقب وصراع يتجدد كلما بدا لعاهل الجزيرة أن يدخل إليها جديداً من مخترعات الأجهزة ومحدثات العلم . وقد لبث زمناً غير قصير ، متردداً بين رغبته في الإصلاح ومسايرته الإخوان . وصارهم طويلاً وهم على موقفهم من عدااء العلم الحديث ومعاندة التطور .

أراد العاهل الكبير أن يمد سلكاً تليفونياً بين مكة ومعسكره في جداء ، والمسافة بينهما

تستغرق ثمانى ساعات ذهاباً ومثلها فى الاياب ، على ظهور الخيل والابل السريعة . لكنه اضطر إلى إرجاء المشروع كيلا تنور نائرة الإخوان الذين كانوا يقطعون أسلاك التليفون « لأنها منكر تجب إزالته » .

حتى إذا لم يجد بداً من نفع قومه وبلاده بمحدث المخترعات العلمية ، عمد إلى ملاينة الإخوان وإقناعهم بالحجة ، عسى أن يطمثوا إلى أن ذلك كله من تحقيق آيات الخالق سبحانه ، فيما سخر لنا مما فى السموات والأرض جميعاً . وفى مؤتمر بالرياض ، دعا إليه العاهل كبار المشايخ فى يناير سنة ١٩٢٧ ، كان أقصى ما وصل إليه منهم ، بعد طول المناظرة والجدل ، الفتوى المشهورة :

« . . أما مسألة البرق فهو أمر حادث فى آخر الزمان هذا ، ولا نعلم حقيقته ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم . فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم . والجزم بالإباحة والتحريم ، يحتاج إلى الوقوف على حقيقته » .

وما كان لمثل الفُتيا أن تحسم الموقف ، وبدا أن الإخوان مصرون على توقفهم فى كل أمر حادث فى آخر الزمان هذا ، مما اضطر العاهل المصلح إلى اصطناع الحزم فى كلامه معهم .

حدث ، رحمه الله ، أن المشايخ حضروا عنده لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية فى الرياض وبعض المدن الكبيرة فى نجد . فقالوا له : ياطويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا ، وإن « فلبى » سيجر علينا المصائب . فقال لهم الملك : « لقد أخطأتم ، فلم يغشنا أحد . ولست والله الحمد بضعيف العقل أو قصير النظر لأخدع . . وما « فلبى » إلا تاجر ، وكان وسيطاً فى هذه الصفقة . إخوانى المشايخ : أنتم الآن فوق رأسى ، تماسكوا بعضكم ببعض ، لا تدعوني أهز رأسى فيقع بعضكم أو أكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض ، لا يمكن أن يوضع فوق رأسى مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتها لى ولبلادى ، وليس هناك من دليل أو سنة يمنع من إحداث : اللاسلكى والسيارات » (١) .

(١) عبد الرحمن نصر : عاهل الجزيرة ، ص ١١٨ وما بعدها ، وفلبى ، سانت جون : كان ضابطاً سياسياً فى دار المنسوب السامى ببغداد . أوفده الإنجليز لمفاوضة ابن سعود سنة ١٩١٧ إبان الحرب العظمى ، والمركة فى الميدان الشرقى دائرة بين الإنجليز والترك . وقد أشهر فلبى إسلامه ، وسمى نفسه « عبد الله » ووضع خبرته الاقتصادية والسياسية فى خدمة الملك عبد العزيز ، وخدمته الإنجليز بطبيعة الحال :

ولم يحسم النزاع ، بل نال بعضهم العاهل الإمام « بمولاة الكفار والتساهل في الدين . وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال . إلى غير ذلك من ضروب الجهالة » وأصبحوا يُحرّمون كل ما لا يتفق ومذهبهم . حتى كادت تكون فتنة أهلية بين الإخوان والحكومة ، بين البدو والحضر . فجرد العاهل كتيبة من شباب المتفقهين في دينهم ، وأوفدهم إلى شباب الإخوان ، عسى أن يُصلحوا ما أفسد الكبار ولما بلغ الأمر أقصى مداه ، عيل صبر العاهل الشيخ ، فأرسل جنده في مستهل سنة ١٩٣٠ لتأديب « العصاة الذين طغوا وعاثوا في الأرض فساداً ، باسم الدفاع عن الدين وجئ برأس الفتنة » فيصل الدويش « بعد معركة أم الرضمة ، إلى خيمة الملك في سيارة مكشوفة فكانت اللعنات تُصب عليه من أتباعه ، لركوبه السيارة ! وكان مما قاله الدويش بعد انكساره :

« يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا . وقد فعلت كل ما يبض وجهك ، وقابلنا معروفك بالإساءة . لقد فررنا من وجهك إلى الكفار فحملونا إليك في طائرة من طياراتهم . ويكفي ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان ، بعد أن كنت عزيزاً محترماً »^(١).

وقد عدّ بعض الكتاب معركة (أم الرضمة) وما تلاها من استسلام « الدويش » للملك عبد العزيز : من المعارك الفاصلة بين النظام والقوضى ، وعدّوا نصر الملك فيها : نصراً للتقدم على الرجعية . وأصغت الجزيرة كلها إلى كلمة عاهلها ، بعد أم الرضمة : « من اليوم سنحيا حياة جديدة » .

لكن الواقع أن تحضير البادية لم يكن ليتم باستسلام هذا المتمرد أو ذاك ، ولا كان بحيث يتقرر في هذه المعركة أو أخرى ، وإنما هو الصراع المستمر المتحفز ، يتجدّد مع كل مجلوب من مستحدثات العلم . وقد يكن فترة تحت رماد الخضوع أو المداراة ، ليعود بعد حين أحداً ضراماً .

والذي حدث بالفعل بعد تلك الجولة ، أن حركة التحضير والتعمير سارت بطيئة في

(١) كان فيصل الدويش من زعماء القبائل وكبار الإخوان ، خرج على الملك عبد العزيز سنة ١٩٢٩ ثم لما حاقت به الهزيمة هرب إلى الكويت وسلم نفسه إلى دورية بريطانية أعادته إلى الملك عبد العزيز - انتظر : عاهل الجزيرة ٢٢١ :

وجه مقاومة قوية من سلطان الإلف والعادة ، وموروث الأعراف والأوضاع . ويشهد على ذلك أن الملك عبد العزيز أعلن ، رحمه الله ، بدء الحياة الجديدة ، في شهر يناير سنة ١٩٣٠ ، وظلت البداية بعد ذلك تنظر في حذر وارتياح إلى كل خطوة نحو التحضر ، وتحاول أن تدفع منكرات البدع باللسان أو القلب ، بعد أن عجزت عن دفعها باليد . . . وبدا كأن الصحراء في حاجة إلى معجزة جديدة ، تضع حداً لهذه الحرب الخفية ضد العلم الذى يتجه إلى الإسلام في ترسيخ الإيمان ، وتُمكن عاهل الجزيرة من تنفيذ رغبته في إصلاح وطيد الأسس النتائج ، بدلا من هذه الخطوات البطيئة الحذرة ، المهددة في أى وقت بهجوم مضاد من الرجعية ، يعيدها القهقرى مجعدة مقهورة .

* * *

هل قلت إن المعركة كانت بين الرجعية والمحدثات من بدع الأجهزة والآلات ! إنى إذن لم أقل كل الواقع ، فالحق أن أبعاد الصراع كانت أعمق غوراً وأوسع مجالاً ، لم يقف الصراع عند (البدع) المستحدثة في آخر هذا الزمان ، بل امتد إلى نمط العيش ومواد التعليم موغلا في الصميم ، لم يكد يدع كبيرة ولا صغيرة من شئون الحياة . وقد نقلت آنفاً ، ما كان من نيل بعضهم الإمام العاهل بموالة الكفار والتساهل في الدين ، وإنكارهم عليه تطويل الثوب والثياب ولبس العقال . ولنا أن نتصور مدى ما كان المجدد المصلح يحتاج إليه من جهد وصبر وحزم وحكمة وطول بال . لكى يتغلب على عناد قوم ضجوا لأن المدارس تريد لتفتن التلاميذ عن العلم الحق الذى لا يمكن أن يخرج عندهم عن التفسير والحديث والفقه وأعلوم العربية وتاريخ الإسلام . وكان من مظاهر الضجة أن « اجتمع علماء الدين من النجديين ، سنة ١٩٣٠ وتشاوروا في الأمر ، ثم أصدروا قراراً بالاحتجاج على إدارة المعارف في مكة ، لأنها أدخلت في برنامج التعليم : الرسم واللغة الأجنبية والجغرافية . » !

ولم ير العاهل من الحكمة أن يرضى في سبيله غير مكترث لاحتجاج المشايخ ، بل أوفد رسولاً إليهم « ليجلو لهم الأمر ويبحث معهم في شأن هذه المسائل التى احتجوا عليها وطلبوا إلغائها من برامج التعليم . »

قال قائلهم :

« لقد بينا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التى تترتب على تقرير هذه العلوم : أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً . وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار

وعلمهم الفاسدة ، وفي ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبتائنا . وأما الجغرافية ففيها كروية الأرض ودورانها ، والكلام على النجوم والكواكب ، مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف .

أريد لأقول : إن معركة أم الرضمة لم تكن الفاصلة كما بدت في حينها ، فهذا الرفض لتدريس الرسم والجغرافية بمدارس مكة ، قد كان بعد استلام فيصل الدويش للملك عبد العزيز . ومشايخ نجد قد كانوا « يحرمون دروس المنطق والفلسفة ، وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة ، ويرون المثل الأعلى للعلماء ، أن يصرفوا أعمارهم في الرد على مخالفينهم » ، ومن ثم أرادوا لإمامهم عبد العزيز ، أن يشغل بالدفاع عن مذهب نجد الوهابي ، والجهد في سبيل نقاء العقيدة الإسلامية من شوائب البدع ، وحماية البلاد من كل طارئ دخيل . .

* * *

وفيما كان الصراع على أشده بين التطور الحضاري والجمود على موروث الأوضاع والأعراف ، تجلت آية العلم فكشفت في الفلاة الموحشة المغلقة ، عن كنز ثمين مطمور تحت الحصى والرمال .
وسقطت الحواجز والأسوار . فإذا بصحراء الجزيرة تشد إليها الأنظار والأسماع في عالم اليوم . . .

* * *

وجهاً لوجه في قلب الصحراء . . .

« وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض
جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »
صدق الله العظيم

كانوا أشبه بفريق من الرحالة الرواد ، نزحوا من العالم الجديد في بداية الثلث الثاني من هذا القرن العشرين ، ونصبوا خيامهم بين جبال النهرين والظهران على حافة الربع الخالي ، حيث لا ظل ولا ماء ، بل المهمة القفر تمتد عن يمين وشمال ، ومن الأمام والخلف ، محلاً موحشاً رهيباً ، تتلوى خيوط الرمال على أديمه كأنها الثعابين ، وتعوى الريح على أعلى قمم وكثبانها ، فتجاوبها من السفوح والقيعان أصدااء كأنها عزيف الجان ، فهي كما وصفها « ذو الرمة » من وراء نحو ألف وثلاثمائة سنة :

ورملٍ لِعَزْفِ الجَنِّ في عَقَدَاتِهِ هَرِيرٌ كَتَصَرَّابِ المَغْنِينِ بِالطَّبَلِ
نصبوا خيامهم هناك منبذين بالعراء ، حيث الضوء الساطع من شمس الظهيرة يعشى الأبصار ، والظلمة الحالكة في الليل البهيم تخلع الأفئدة . قد هجروا أهل والولد ، وتركوا الحياة الناعمة المترفة في أمريكا وراء ظهورهم ، عسى أن يكشفوا عن ينابيع للبترول قد تكون مطمورة تحت أديم بقعة من هذه الفلاة الموحشة .

قبلهم ، كان رواد آخرون قد سبقوهم إلى هناك ، في شتاء سنة ١٩٣٠ ، ونقبوا عن الزيت في الشمال الغربي من نجد ، ثم مضوا يائسين من الصحراء ، بعد أن أذابوا في رمالها الملتهبة أكداً من المال مختلطة بالعرق من جهد ضائع .

فجاء هؤلاء على أثرهم يستأنفون المحاولة ، بأمل جديد . وكانت منطقة الأحساء ، شرقي نجد والدهناء ، وجهتهم هذه المرة . فشقوا إليها ما يقرب من ألف ميل عبر الصحراء القاحلة ، موقدين من شركة « ستاندرد أويل » في كاليفورنيا ، وهي الشركة الوحيدة التي قبلت الدخول في هذه المغامرة وتمويلها ، سعياً وراء كثر مجهول المكان ، مشكوك وجوده وقيمته .

وفي اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، وصل مدير الشركة إلى الظهران بعد توقيع اتفاقية الزيت مع الحكومة السعودية . وجاء معه بالرجال والآلات للتنقيب التمهيدى ، وبدأ الحفر فعلاً في آخر أبريل من سنة ١٩٣٥ .

* * *

أكبوا على تلك الرمال القاسية والصخور الجرداء ، يحفرون وينقبون ، بين قيط يشوى اللحم ويصهر العظم ، وزمهرير يثلج البدن ويُجمد الدم ، منقطعين عن الدنيا نائين عن العمران ، يحيط بهم القفر الياب من كل جانب ، وتراقبهم عن كثب عيون حديدية البصر ثاقبة النظرات . تحصى عليهم كل حركة وسكنة ، وترقب سير العمل في حذر وارتياب . تلك هى عيون العرب النجديين الذين التقى بهم الأمريكان وجهاً لوجه في قلب الصحراء ، فكان صراع غير سافر ولا صريح .

* * *

خمس سنين من الجهد المضنى والحياة الخشنة القاسية والعمل الكادح ، أذابت الرمال فيها خمسة عشر مليوناً من الدولارات ، قبل أن تبيح لهؤلاء الكادحين قطرة من ذهبها الأسود ، أو تأذن لهم في لحظة من راحة وأمان .

خمس سنين ، قضاهم أبناء الدنيا الجديدة في مجاهل المنطقة ، يحفرون البئر بعد البئر وينتقلون من قفر إلى قفر ، والصحراء ضنيّة بسرهما ممسكة عن العطاء لا تقدم إلى ضيوفها الغرباء إلا القيط والزمهرير ، ولسع الصخور وعواصف الرمال ، والوحشة والملال . ولا تكف عنهم ملاحقة حراسها الغلاظ الأشداء ، الذين أغضبهم أن تطأ أرض الجزيرة قدم كافر من الفرنجة .

لكن الباحثين عن الكثر ، كانوا يدركون أن اليأس هو عدوهم الألد ، من ثم راحوا يحاربون هذا العدو في أنفسهم ، ويخشونه أكثر مما يخشون حراس الصحراء ووحوش الفلاة . أما التعب والملل وشظف العيش وعسر الحياة ، فداخل كله في الحساب ، وهل كانوا يجهلون يوم نزحوا من أمريكا ، أنهم ملاقوا هذا النصب كله ومثله معه ؟

* * *

وكانوا قد تعلموا في مدارسهم ومعاملهم بالغرب الحديث ، ألا ينصرفوا عن متابعة التجارب ، بعد إخفاق الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة . . . وأكبوا من جديد على الرمال الكاوية ، يحفرون البئر السادسة والسابعة .

وكانت معركة ، تلاقى فيها جيروت العلم مع جيروت الصحراء ، فتم النصر للعلم :
 هنالك كشفت الصحراء عن سرها الخطير ، وأباحت كترها من دأبوا على البحث عنه
 في عزيمة صامدة ، وإرادة عنيدة لا تتخاذل .
 وتجلت آية العلم في صحراء الجزيرة التي أصغت من نحو أربعة عشر قرناً إلى كلمات
 الوحي الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق »

فسبحت خاشعةً باسم الله الذي :

« علم الإنسان ما لم يعلم »

انتصر العلم وأثمر الجهد هذه المرة السابعة ، فأذاع البرق في اليوم الثاني عشر من مارس
 سنة ١٩٣٨ نبأ حفر أول بئر للبترو في الظهران من حقل الدمام الذي بلغت مساحته تسعة
 آلاف فدان ، وعمقه ٤٥٠٠ قدم . وعدد آباره اثنتين وثلاثين !
 ثم توالى الأنباء من بعد ذلك معلنة في الأعوام الأولى عن اكتشاف حقول :
 أبو حدرية : سنة ١٩٤٠ وترك مُغلَقاً .
 بقيق : سنة ١٩٤١ ومساحته سبعة وسبعون ألف فدان ، وعمقه إحدى عشرة قدماً ،
 وآباره ثمانى عشرة .

القطيف : سنة ١٩٤٥ ، وعمقه سبعة آلاف وثلثمائة قدم ، وآباره اثنتان .
 ومن ثم بدأ سيل الذهب الأسود يتدفق سخياً من ينابيعه في جوف الرمال .
 وعلى الرمال الملتبته ، تحت شمس الصحراء المحرقة وفي قلب القلاة المهجورة
 الموحشة ، قامت معامل ضخمة تدفع سيل الزيت في أنابيب تمتد أميالاً إلى موانئ الشحن
 والتفريغ على سواحل الخليج والبحر المتوسط .
 ولم يكن التفريغ أمراً هيناً .

أما في الخليج ، فحين جاءت ناقلات البترول إلى الدمام لتحمل هذا السيل الدافق ،
 عاقها هناك عائق من طبيعة الإقليم فلم تستطع أن تصل إلى الساحل عند الدمام ، ميناء
 الظهران ، لأن مياه الخليج هناك ضحلة قرية الغور .
 لكن العلم لم يعجزه أن يصل حافة الصحراء بقلب الخليج حيث ترسو الناقلات ، بل
 تقدم فبنى ميناء تمتد ثمانية أميال في عرض الماء . .
 وأما عن البحر المتوسط ، فكان على حاملات البترول أن تقطع ثلاثة آلاف ميل كي

تصل من معامل الزيت في الظهران ورأس تنورة ، إلى موانئ الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، عن طريق خليج عدن والبحر الأحمر وقناة السويس . . . وتقدم العلم فدف خط أنابيب ، طوله ألف وسبعون ميلاً فقط ، مبتدئاً من الأحساء ، ومتجهاً شمالاً بغرب إلى تل الحبر قرب حدود الأردن ، ومواصلاً امتداده في هذا الاتجاه عبر الأردن وسورية إلى أن يصل إلى ميناء صيدا ، من الساحل اللبناني .

ويبلغ قطر الأنابيب في هذا الخط ، ثلاثين بوصة . صُنعت بحيث تحتل التمدد والتقلص من اختلاف درجات الحرارة ، ويستطيع هذا الخط الحصين أن يدفع إلى الميناء ثلاثمائة ألف برميل من الزيت ، كل يوم .

وازداد تدفق الزيت يوماً بعد يوم . وسجلت الإحصاءات الرسمية صعود الإنتاج من ٥٨٠ ألف برميل سنة ١٩٣٩ ، إلى خمسة ملايين سنة ١٩٤٠ ، ثم إلى واحد وعشرين مليوناً وثلاثمائة ألف برميل سنة ١٩٤٥ ، ارتفعت إلى مائة وثلاثين مليوناً وتسعمائة ألف برميل سنة ١٩٤٨ (١) .

وماتزال هناك آبار مغلقة لم تُستغل بعد .

* * *

ومع الزيت ، تدفقت الثروة ، فإذا بالصحراء القاحلة الماحلة الجرداء ، تجود بملايين الجنبيات كل عام ، نصفها للمملكة العربية السعودية صاحبة الكثر والأرض ، والنصف الآخر لشركة أرامكو صاحبة الامتياز (٢) .

وآن للمهاجرين المتعبين أن يظفروا في تلك الفلاة الموحشة بحياة لعلها لا تقل عن حياتهم الأولى في أمريكا رغداً وترفاً . ولحقت الأسر برجالها بعد أن غدت هذه المنطقة من صحراء الجزيرة عامرة غناء . .

* * *

هل خفف الصدام بين الشرق والغرب ، بين العرب والأمريكان ، بعد أن جادت الصحراء بعطائها ؟

(١) لمزيد تفصيل عن قصة البترول ، انظر كتاب : (المملكة العربية السعودية) تأليف كارل تويتشل ، ترجمة السيد شكيب الأموى و . طبع في دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٢) جدُّ على الاتفاقية الأولى ، تغيير لشروطها وتعديل لحقوق المملكة ، وامتزال الدول المنتجة للبترول تابع جهودها في سبيل عدالة التوزيع لعائد البترول .

كلا ، بل هو باق هناك ، وإن بدا للنظرة السريعة أن العهد به قد انتهى .
ويخطئ الذين يتوهمون أن الأمريكان قد غلبوا العرب على أمرهم : فما تزال العيون
السود تلاحق أولئك الأجانب الغرباء . بنظرات ثاقبة ملؤها الشك والحذر ، ساهرة على
حراسة تراث الجزيرة وتقاليد العرب وشرعية الإسلام ، من ذرائع الغزو .
ولا تكاد ساعة تمر ، دون أن تذكر الجزيرة هؤلاء الغرباء بأنهم أجنب ، جاءت بهم
ضرورة اقتصادية ومدنية تقدر بقدرها . ولا ينبغي لهم أن يتخطوا الأسوار التي بناها عاقل
الجزيرة ، وأقام عليها الحراس الأشداء .
وهي أسوار تسمح للمدينة الغربية أن تعمر الصحراء وتجلب إليها ما شاءت من محدثات
الأجهزة والآلات ، لكنها لم تسمح بتسلل غزو فكري يمسخ أصالة العربي أو يفتنه عن
إيمانه وتقاليده ، أو يستعمر أرضه .
فلا بأس على الجزيرة مثلاً ، إذا هي استوردت أحدث الطيارات من مصانع الغرب ،
لكنها لا تأذن لها في أن تجوس أجواء الجزيرة . إلا بعد أن تطبع عليها شعارها القومي
الديني :

« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

في نطاق هذه الحواجز يعيش الأجانب في شبه عزلة ، لهم أحياءهم السكنية الخاصة ،
بمدارسها ومستشفياتها ومطاعمها ، لا يكادون يندمجون في أهل نجد ، خارج منطقة
العمل .

ويوم العطلة هناك الجمعة لا الأحد ، للعرب والأمريكان والأوربيين على السواء .
والتقويم المعجى هو الذى تؤرخ به معامل أرامكو ومكاتبها ، مثل سائر البلاد .
والتوقيت العربى هو التوقيت الرسمى : تشرق الشمس في الساعة الواحدة ، وتغرب في
الثانية عشرة .

ومحظور بتاتاً ، أن تقام كنائس في مهد الإسلام وجزيرة العرب ، وأن تدق أجراس
ونواقيس ، حيث المآذن ترسل دعاء الإسلام من فجر المبعث .
ولا يؤذن لأى قسيس أن يخطأ أرض الجزيرة لمهمة دينية ، فمن شاء من المسيحيين أن
يتزوج رحل إلى البحرين مثلاً ، ليعقد إكليل العرس .
وغير مسموح للمطاعم الأمريكية أن تقدم لروادها الخمر ولحم الخنزير ، كما يحظر على

(الكائنات الأمريكاف) عرض هذه المحرمات للبيع .
ويحتمل رجال الشرطة مسئولية أى مخالفة لهذه القوانين ، تقع فى دوائر عملهم .
مفروض على الأجانب أن يعيشوا هناك ، جنود تعمير لا دعاة استثمار .
وبهذا استطاعت الجزيرة حتى الآن أن تحمى استقلالها من سيطرة الدخلاء ، وإن
تركزت المدنية والعصرية تغزو الصحراء وتبعد طرقها وتضيئها بالكهرباء . .
وترنو الجزيرة إلى غد يستطيع فيه أبناؤها أن يسيطروا على الآلة ، وفى سبيل هذا الأمل
المرجو ، فرضت على شركة أرامكو أن تنشئ فى الظهران مدرسة لتخريج صناع من أبناء
العرب ، يدرسون أسرار الكهرباء والميكانيكا والتكنولوجيا ، ويوفد الناجحون منهم إلى
أمريكا ليكون منهم المهندسون والخبراء والطيارون . .
ترى هل يستطيع هؤلاء الشباب أن يقاوموا فتنة الفرنجة فى أمريكا كما قاوموها فى
الجزيرة ، حيث القوانين صارمة والحراس أشداء ؟
الجواب فى ضمير الغد ، عندما يلتقى هذا الجيل من شباب العرب بالأمريكان وجهاً
لوجه فى قلب العالم الجديد ، كما التقى جيل قبله وجهاً لوجه ، فى قلب الصحراء . .

ثورة في الصحراء

« وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »

على متن الريح فوق السحاب ، كانت رحلتنا ما بين جدة والظهران . وقد مضت بنا الطائرة تشق أجواز الفضاء وتطوى البيد والقفار ، ونحن نحقق من نوافذها الصغيرة في الصحراء المترامية من تحتنا ، فلا نرى خلال ساعات أربع غير التيه ، تتدافع فيه أمواج الرمال المتقدة في وهج الظهيرة ، وتتطاير ذراتها فتعقد من حولنا سحبا كالضباب ، يلف هذا القفر اليباب . .

أربع ساعات عبر المهمة الماحل الأجرد ، لم نلمح فيها أثرا لحياة أو معلما لطريق ، ولا سمعنا سوى أزيز الطائرة وهي تتعثر في كهوف الهواء . .

ونظرت إلى رفاق السفر في الطائرة ، فإذا فيهم نفر من البدو ركبوا معنا متن الهواء وامتطوا جناح هذا الطير على بساط الريح . وإن فيهم من شق أكباد الإبل في مسيره عبر هاتيك الفيافي التي لا تنفك في مخيلتهم ملعبا للغيلان ومراحا للوحوش . . وعطفت على بدوية كانت تجلس أمامي في عباؤها السوداء فسألتها : إن كان لها بركوب الطائرة عهد قبل اليوم ؟

فأجابت بصوت هامس ، حرصت على ألا يبلغ مسمع الرجال الأغراب :
- بل هذى أول مرة أخرج فيها من ديارنا ، وما عرفت قط غير الإبل مركبا .

قلت : فما ترين في رحلة اليوم ؟

ردت من فورها : عجيبة والله ! وما أدري أهى من فعل ساحر من مرده الجان ، أم يعيش في زمننا هاذاك بقية من جند النبي سليمان ؟

ولما سألتها بلغة البادية ، أين تحط رحالها ؟

أجابت بأنها لاحقة برجلها العامل في (الكامب السعودي) بالظهران . فابتسمت للمفارقة الطريفة بين عبارتي البدوية : تحط الرحال ، واللفظ الحديث الدخيل : الكامب .

وحمل لنا مضيف لحما طريا وخبزاً طازجاً شهياً وشراب الكولا والأناناس ، فأخذت

أرقب جارتى وهى لا تجرؤ على مس أقداح الشراب ظناً منها أنه من الحرام . . .
ولاحت لنا مياه الخليج أشبه بواحة فى الصحراء ، وحوّمت الطائرة حول مطار
الظهران وقد تناثرت فيه الحظائر والمباني كأنها أعشاش طير ، وعلى أرضه كانت بضع
طائرات جائئة ، شبيبة بجراد منتشر .

ولبت الطائرة نحو عشر دقائق تدرج فوق ساحة المطار ، قبل أن تستقر على مهبطها ،
ونحن لا نكاد نصدق أننا عبرنا الجزيرة من جدة على ساحل البحر الأحمر ، إلى الظهران
على ساحل الخليج ، فى ساعات ما بين ضحى وأصيل !
وتمثل لى آنذاك شاعرنا « طرفه » وهو يضرب بناقته فى الدهناء أياماً وليالى ، ورحت
أسترجع أبيات قصيدته المعلقة ، فى وصف مطيته تلك الأمون الدلول !
هكذا من الناقه إلى الطائرة !

من الهودج ، إلى صالون داكوتا وبريستول ؟
من ماء الأمطار والآبار والعيون ، إلى شراب الأناناس والكولا ؟
ياله من انتقال سريع عبر هوة شاسعة ، فما عرفت الدهناء من قبل عربة أو سيارة ،
ولا عهدت قطارا يحوس خلال دروبها ويمرق بين كثبانها ، حتى اليوم !

* * *

وكان مقامنا بالظهران فى غرفات عصرية من دار الضيافة ، وثيرة الفراش مضاءة
بالكهرباء ، مكيفة الهواء لا نرى فيها شمساً ولا زمهريراً .
وليس بيننا وبين الصحراء بقيظ نهارها وصقيع ليلها ، سوى جدار بسيط تسفحه
السافيات وتلطمه الهبوب .
أى ثورة وأى انقلاب ؟

لقد كانت هذه البيد لا تعرف من المساكن سوى الخيام المتنقلة تقام على العمد
والأوتاد وتُشد بالأطناب . ولا ترى من الطعام سوى الخبز القديد ولحم الإبل ويابس التمر
وماء المطر . أما الغرفات المبنية والنعم الطيبة فكان موعدهم بها فى جنة الخلد ، إذ المؤمنون
« فى الغرفات آمنون » ، « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » ، « وفاكهة مما يتخيرون .
ولحم طير مما يشتهون » .

* * *

هى آية العلم كشفت عن الكثر الخبوء فى أحشاء الدهناء وأعطت الثروة وبُثت الحياة فى

ذلك الخراب ، وحولت التيه المهوب إلى جنة في الصحراء .
هذه آبار الزيت ، تدل عليها شُعل حمراء ساطعة الذوائب ، تضيء هذا الظلام مؤذنةً
بعهد جديد في الدهناء التي طال ليلها وضل فيها الخيال ، ومذكرةً بنار القرى التي كان
حاتم الطائي يأمر غلامه بإيقادها على جبال طيئ في ليل الدهناء ، وبذلك النار الأخرى التي
بات عليها « أعشى قيس » آكلًا شارباً ، في ضيافة « الملق » وبناته ، ثم غدا ساعياً إلى
الموسم وهو يترنم بأبياته المشهورات :
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرقُ
تُشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والملح
فرجعت أرجاء الجزيرة صدى صوته عبر قرون طوال من ليل الجاهلية ، حتى بلغ منا
مسمعاً ونحن نتجول في الأحساء ، منتصف القرن العشرين .
ومعالم العمران ماضية في غزوها للصحراء ، تنجاب أمامها ظلال الأشباح التي طالما
عمرت الدهناء والنفود والربع الخالي ، وتجولت طليقة بين النهدين والظهيران . .
مغلنة أن العلم قد انتصر على عناد الصحراء ، كما انتصر على غيرها من برّ وبحر ، وذُلّ
شوامخ الجبال الراسيات ، وسخر السحب واتخذ سبيله بينها سرباً إلى أعالي الفضاء .
وأنايب الزيت تعترض سبيلنا هناك وهناك ، ممتدة شرقاً من الدمام ويقيم
ورأس ثُورة إلى البحرين على ساحل الخليج ، وشمالاً بغرب ، إلى صيدا على ساحل البحر
المتوسط .
مسجلة أن الإنسان قد اكتشف السر الخطير الذي أجهته أحشاء البيداء دهوراً
وأحقاباً ، وأزاح كتمان الرمال والصخور عن منجم الذهب الأسود المطمور تحت أديم
الصحراء . .

صُورٌ من الجزيرة

- المغتربات
- جارة النبی
- هاجر
- آمنة

المغتربات

« ... ليتنا نقدر أن الغرب ، الظافر الغالب ،
يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ
سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى
اغتنصت زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلاً
واستبجح ! » ..

لقيتُهن هناك فى صحراء الجزيرة ، قد تخلين طائعات عن الحياة الناعمة فى أوطانهم ،
وتبعن أزواجهن إلى ذلك المكان الثانى الموحش ، ليهيئن لهم من دفء العش وأنس
الأسرة ، ما يعينهم على العمل الكادح والكفاح الصعب ، بين الصخور والرمال ...
لقيتُهن هناك فى الدهناء : أمريكيات وأوريبات وآسيويات ، عصريات مثقفات ، قد
رضين بالعيش فى تلك الفلاة المهجورة يمسحن بأناملهن الرقيقة العرق المتصبب من جباه
رجالهن العاملين فى وقدة الرمضاء ...

ورأيتُهن هناك : ابتسامة وضيئة فى وجه الصحراء الغضوب ، وأطياناً رشيقة أنيقة
وسط المهمة القفر ، ونعمة عذبة ترؤح عن الرجال الذين يعملون بين ضجيج الآلات
الضخمة الماردة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة على حافة
العرمان ...

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود ، أن تبنى للمغتربين مساكن
طيبة ، حولها حدائق مزهرة غناء ، تصد عنها بعض لفح الهجير وعواصف الرمال ولطحات
الرياح السافيات !

ولم يشق على شركة الزيت أن تضىء منازل رجالها بالكهرباء ، وتكيف فيها الهواء ،
وتزودها « بالتليفون والراديو والفريجيدير » ، لكنها لم تكن لتستطيع - ولو ظفرت بمال
قارون وعثرت على كنوز سليمان - أن تزدود عن الرجال الضجر والملال والوحشة ، وأن
تمس مساكنهم بتلك اللمسة اللطيفة التى تتركها الأنثى حينما مست يداها ! أوتبت فى
المساكن المزودة بآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، روحاً من الأنس واللفظ

والرقة والحنان ، كتلك التى تلقىها الزوجات والأمهات !
 هن اللواتى يجعلن المنازل بيوتاً وسكناً ويبعثن الحياة فى ذلك الخراب اليباب ، وينبتن
 فى الأرض القاحلة الماحلة ، زهرات إنسانية يانعة ، تعطر الجو الصحراوى بأريج الطفولة
 الباسمة المتفتحة للحياة !
 ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أنشئت المدارس والملاعب فى منطقة الزيت بالصحراء ،
 واستطاب الآباء مرارة الكفاح ، واستمرءوا طعم العيش مع وحشة الاغتراب .

* * *

ومضيت أنفوس مصرئياً واحداً بين الرجال العاملين فى شركة الزيت ، فلم أجد !
 وقيل لى فيما قيل : إن الجزيرة ألحت فى طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر ،
 فلم يستجب لها أحد كما استجاب آخرون : من الهند وإندونيسيا وإيران ، وسورية ولبنان
 وفلسطين ، وأوربا وأمريكا .
 لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة ، مع أنها تلقاهم بترحاب حار
 لا يظفر به أجنى ، وتزلهم بين أبنائها مكاناً عزيزاً تضن به على الغربين الغريب ؟
 لسبب بسيط ، هو أن المصريين يابئين الهجرة ولو إلى قطر شقيق ، ويرفضن أن يتبعن
 أزواجهن ولو إلى بلاد العرب ، مها تكن المغريات ^(١) !
 وكنّ أولى بأن يعلن ، لأن حياتهن هناك لا يرهقها شعور بالغرابة ، فى بلاد نتكلم
 بلغتها ، وندين لها بالإسلام !

أليس من العجيب أن تعيش هناك غريبات أعجميات لا يعرفن حرفاً من العربية ،
 ولا يؤذن لهن بأن يؤدين شعائر دينهن - إذ الجزيرة تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس
 ودخول القسس والرهبان - فى الوقت الذى تأبى فيه تلك الحياة ، مصرات يتزلن هناك
 بين أهل وجيران ، وإخوان فى الدين واللغة والقومية ؟

أليس من العجيب أن ترضى بالعيش فى الظهران ، غريبة عصرية ، قد تكون ولدت
 فى نيويورك أو روما أو باريس ، ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة فى قلعة الكيش ،
 أو صفط تراب ، أو زاوية الناعورة ، أو دشنا وفرشوط ؟

(١) كتبت هذا ، سنة ١٩٥٢ ، قبل أن تلوح على أفقا بوادر السعى إلى العمل فى الأقطار العربية الشقيقة ، إعاقة

كلا ، ليس في الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان ، وأى
هكذا خُلِقْنَ ، والأمر لله !

إن المصرية تأبى أن تترج من القاهرة إلى الجيزة ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور ،
ويندر أن ترى قاهرة ترضى بالزواج من رجل يعيش في الريف ، ولو كان من ملاك
الأراضي وكبار الموظفين .

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون في الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات ،
يحتملن العيش بعيداً عن أضواء العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشترط لإتمام
عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة . .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً لا تكاد تُصدق ، عن طالبي النقل
إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيننا من تتبع زوجها إلى الصحراء في جزيرة العرب ؟ !
إني لأذكر زوجات بعض الموظفين في إحدى المزارع النموذجية قرب القاهرة ، في
منطقة أشبه بالجنة ، قد رفضن أن يعشن هناك في (الفيلات) الأنيقة المضاء بالكهرباء ،
والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . .
وفي مجاهل إفريقية وآسيوية ، تعيش غريبات غريبات ، يفهمن حق الفهم دورهن في
الحياة ، ويقدرن واجبهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، الظافر القاهر ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من
نفوذ سياسي واقتصادي ، في أرضنا الطيبة التي اغتصبت زماناً ، وشرقنا الذي غلب طويلاً
واستبجح ! ! . .

جارة النبي . . .

« قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » .

سعيينا إلى الحرم النبوي في جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذي ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء الدنى ، وترجعه الأطياف السارية على أجنحة من النور ، وتتجاوب به القمم والسفوح والأودية في رنين علوى النغم ساحر الأصداء ، فإذا الكون كله تسبيحة مؤمنة وترنيمه هائلة ! وإذا بلغنا باب المسجد ، خلعنا نعالنا وسرنا خُشْعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفّا الحس وشفّ الشعور ورقّ القلب ، واندبجت شخوصنا المتعبدة في ركب الأرواح المطيفة بحرم النبي ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

حتى إذا قُضيت الصلاة ، انتشر القوم خارج المسجد ساعين على رزقهم يتغنون من فضل الله ، وبقيت قلة من الذين انقطعوا عن الدنيا ، وآثروا على كل متاع فيها ، جوارّ الرسول الحبيب . وآخرون أرهقهم الهموم والأحزان فلاذوا بنبيهم الكريم ، يسألون الله تعالى بحق هذا النفس الطاهر في المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

وكنت قد اخترت مكاناً منفرداً في الحرم أتأمل ، وأحاول أن أستحضر الذي وعيتُ من مشاهد التاريخ الإسلامي منذ عام الهجرة ، إلى أن لبي المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر في هذه البقعة المباركة الباقية على الزمان ، مزاراً مقدساً للمسلمين من شتى أقطار الأرض..

ومرّني في مجلسي عددٌ من النسوة يطفن بالمقصورة الكريمة ، فلم ألق إليهن بالا . حتى إذا فرغن من طوافهن جلسن غير بعيد مني شاقيات داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعي عن أصواتهن ودعواتهن كيما أفرغ لتأملاتي . لكنني ما لبثت أن سمعت صوت نشيج مختنق ، رجّعته جوانب الحرم فكان له صدى لا فت ، وجمنا له حيناً حتى صرفنا عنه قارئ من قراء المدينة » يتلو بعض قرآن الفجر .

وأدبرت رأسي ألتمس الباكية ، فألقيتها إلى جانبي : امرأة نحيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تتنفّض في ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تخنق أنفاسها المتلاحقة . .
وأنكرتها النسوة من حولها فتركن لها المكان ، وبقيت وحدي إلى جانبها أرنو إليها في رثاء وعطف ، حتى رفعت نحوي وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهتفت بي فجأة :

— ادعى لي !

قلت في حرارة وتأثر :

— الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدأ لي حينذاك أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتها :

— غريبة أنتِ عن الديار ؟

أجابت وهي تشهق :

— وى ! غفر الله لي ، أأكون غريبة مع جوار النبي ؟ ولكن لي في بلاد بعيدة فلذة كبدي غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبي ، فأفزع إلى ربّي لعله يردها برداً وسلاماً . هل تحفظين ياسي كتاب الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

— أرجو ، فما الذي تبغين ؟

أجابت في لهفة :

— تقرئين لي قصة نار إبراهيم ، فإني أشعر كلها سمعتها براحة . .

فأدركت مانعني ، وتلوت عليها آيات إبراهيم من سورة الأنبياء :

« وَاللّٰهُ لَا يُكَيِّدُ أَصْنَٰمَكُمۡ بَعْدَ اَنْ تَوَلَّوۡاْ مُدۡبِرِيۡنَ . فَجَعَلَهُمۡ جُذَآءً اِلَّا كَبِيۡرًا لَّهۡمۡ لَعَلَّهُمۡ اِلَيْهِ يَرْجِعُوۡنَ . قَالُوۡا مِنْ فَعَلۡ هَٰذَا بَآلِهَتُنَا اِنَّهٗ لَمِنَ الظَّٰلِمِيۡنَ . قَالُوۡا سَمِعْنَا فَتٰى يَدۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥ اِبۡرَٰهِيۡمَ . قَالُوۡا فَاَتَوَا بِهِ عَلٰى اَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُوۡنَ . قَالُوۡا اَآنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بَآلِهَتُنَا يَا اِبۡرَٰهِيۡمَ . قَالَ بَلۡ فَعَلَهُ كَبِيۡرُهُمۡ هَٰذَا فَاَسْأَلُوۡهُمْ اِنْ كَانُوۡا يَنۡطِقُوۡنَ . فَرَجَعُوۡا اِلَىۤ اَنْفُسِهِمۡ فَقَالُوۡا اِنَّكُمْ اَنْتُمُ الظَّٰلِمُوۡنَ . ثُمَّ نَكِسُوۡا عَلٰى رِءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَآءِ يَنۡطِقُوۡنَ . قَالَ اَفَتَعۡبُدُوۡنَ مِنْ دُوۡنِ اللّٰهِ مَا لَا يَنۡفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . اَفُۦٓ لَكُمْ وَلَآ تَعۡبُدُوۡنَ مِنْ دُوۡنِ اللّٰهِ اَفَلَا تَعۡقِلُوۡنَ . قَالُوۡا حَرِّقُوۡهُ وَانۡصُرُوۡا آلِهَتَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِيۡنَ . فَلَمَّا يَانَا رَكُوۡنِيۡ بَرَدًا وَسَلَٰمًا عَلٰى اِبۡرَٰهِيۡمَ . وَاَرَادُوۡا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْاٰخِسِرِيۡنَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا اِلَى الْاَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِّلْعَالَمِيۡنَ » .

صدق الله العظيم

هنالك انبسطت أساريرها ، وبان عليها الارتياح ، لكنها عادت فتجهت وهمست
تسألني في خوف وشك :

— وهل ترين أني أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟ فأبيتُ عليها أن تيس من
روح الله ، ثم هممت بالقيام معتذرة بأنى من قومي على موعد ، كى نسعى إلى « أحد » ثم
إلى « قباء »^(١) قبل أن ترتفع الشمس وتلتهب الصخور والرمال .
فتوسلتُ إلى أن أبقي هنية ، ريثما تقص قصتها على :

* * *

نشأت في بلاد المغرب الأوسط ، بدوية حسناء ترعى الغنم . ومات أبواها وهي
صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تفتتح للربيع ناضجة الجسم
رطبة العود ، حتى ركبهم الهمُّ واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحبة ،
ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشارتها ، ويتبعون
مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصفون إلى ما قد يندُّ عنها من هذر الأحلام في غفوة
النعاس أو غشية الحمى .

وسألهم أن يرحموها بالخباء فلم يفعلوا ، إذ لم تسعف عليه بيثهم وهم بدو من فقراء
الرعاة . وهكذا استقبلت ربيع العمر في ظلِّ رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة
أوضحكة ناعمة ، كى تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم مأوى للأنثى في شرايع
البداة الجفافة !

ولم تكن تدرى كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظالمة ، فقد بدا أن قومها لم يكن
يُرضيهم منها أى حال :

إن وجمتْ ، قيل محزونة أرهقها الانتظار ، وإن ابتسمتْ قيل عاشقة لقيتْ الحبيب !
إن مرضتْ قيل مجفوة أضناها الحجر ، وإن صحتْ قيل راضية صفا لها الحب !
إن نامتْ قيل حاملة تهفو إلى لقاء طيف المحبوب ، وإن سهرتْ قيل مسهدة جفاها
الرقاد !

إن تجملتْ قيل فاجرة تنهأ للقاء ، وإن أهملتْ زينتها قيل ضالة رحل عنها من
تهواه ! !

(١) قباء : قرية على بعد ميلين جنوبى « المدينة » على يسار القاصد إلى مكة . نزل بها الرسول ﷺ في هجرته
التاريخية ، وبنى بها أول مسجد فى الإسلام

وأنهكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن تصاب بخبال ، فدعوا لها ضاربي الرمل وقارئي الكف ، كى يتزعوا منها قهراً ذلك السر الأثيم الموهوم الذى تكتمه . وما كان سرها سوى هذا الصبا الريان الذى تفتح برغمها وازدهر . .
 وحين أعياهم أمرها ، زعموا أن لها عاشقاً من الجن ، فاستحضروا الرقاة وضربوا الدفوف كى يبرئوها من مس الجن ، وما كان الذى بها سوى اللمسة الساحرة من فورة الربيع وحيويته الدافقة . .

* * *

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .
 أو هكذا ظنت وظنوا . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا فتاتهم من محنة التردد ، وطاب لهم ولها أن يندوا ربيعها المسئول عن كل ما لقيت ولقوا ، وأن يلقوا عليه ركاً من ثلوج الشتاء ، تُخمد جدوته المتقدمة وتذهب بعبيره الفياح !
 لكنها راحة لم تطل . . .

فما كادت تضع وليداً جميلاً فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أساءت فيها القول ، وكأنما كرهت أن تذهب هذه الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم الهالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرحتها إلى قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجها فى الأموات وولدها فى الأحياء !

ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت كسيرة القلب والطرف ، تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر الحى مكاناً قصياً وانطوت على أحزانها تجترها فى شجن صامت . .

حتى وفد على الحى ذات ليلة ، وافد غريب جاء من ديار بعيدة يسعى فى طريقه إلى الحجاز ، وقد كُلت قدماءه من طول السرى فتزل بالقوم يلتمس القرى ريثما يريح بدنه المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث ليال لم يكف خلالها عن التغنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحنينه إلى الروضة الشريفة . .
 هناك حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويجد نفسه فى جوار النبی الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وأخذتها عيناه في كل ليلة ، وهى تصغى إليه من ركنها المتزوى ، فرق قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الذابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحبالها ، فاستجابت للدعاء دون تردد ، وتشبث بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصدها عن سبيل الله .

قبل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحج إلا في صحبة رجل من محارمك . فكادت تيشس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلب يدها ، وقد راقبت في عينيه وطاب له أن يتخذها تُهَوَّن عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . . ثم انصرف بها يبيغان مكة المكرمة . ومن ثم إلى المدينة المنورة !

* * *

تبع زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بئها وحزنها وتنفض في ساحة الحرم همومها وأوجاعها . وقد هون عليها ذلك ، كل ما لقيت من عناء السفر ووعثاء الطريق ، وكلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تنهوى دون الغاية ، تراءت لها القبة الخضراء من بعيد ، فدبت القوة من جديد .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيانها المتداعى إلى الحرم المبارك ، فردت إليها الروح ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتلة داعية .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تثوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضى المقدسة وطراً . لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام في دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام في إثر عام ، وهى تغدو إلى الحرم النبوى مع مطلع الفجر ، فتقيم به نهارها وقطعة من الليل ، ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة في « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادله حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل قد انتهى منذ استقر بها المقام في المدينة المنورة . وكانت تقول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكى يؤذَن لها في المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تَظِلُّ ولدها . أما وقد جاء بها إلى « المدينة » إلى غير عودة ، فليدعها إذن إلى جوار الرسول ، فما لها في غربتها ملاذ سواء !

لكنها في أعماقها كانت ترى هذا الزوج مستولاً عما تعاني من جهد الشوق إلى ولدها : أولم يزين لها الزواج على غير هواها ، ويعيدها السلو والنسيان ؟

أو لم يزعم لها أنه قادر على أن يبدل حياتها الحزينة بأخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً ؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستعر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار ؟ !
 ما بالها لا تكاد عينها تقع على صاحبها حتى يثور بها لالعجُ الحنين إلى ابنها الناقى ، فتجد لهذا الحنين مثل لفح النار ولذع الجمر ؟

وكأنما وجدت أخيراً مَنْ تحمل عليه إصرَ ما لقيت في حياتها الشقية منذ مات أبواها ، ومَنْ تأخذه بذنب الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها ، دون أن تيجرؤ على الشكوى أو الاحتجاج !

واستشعرت لذلك نوعاً من الرضى ، ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها الراقدة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهد ، وربيها الموءود ، وأمومتها المحرومة المعبدة !

وكان الزوج يلقي ثورتها مستخفاً بها ساخراً بأحزانها ، فلما استمرت طعم التمرد عليه لم يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها فكانت تهرب من الدار طولَ النهار مستجيبةً بحمى الحرم الأمين ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى عدوها ، وتستغرق في صلواتها ودعائها ، ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفئ برحمته وقدرته ، هذه النار التي ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . .

وتنفس الصبح وأنا في مجلسي أصغى إلى حديثها المر ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست عن شجونها ، أطرقت صامته خاشعة ، وبدا لي أنها قد انصرفت عني تماماً ، فألقيت عليها نظرة رحمة ، ثم قت أخطو وبيداً في ساحة الحرم ، رانية إلى أسراب الحمام التي تمرح هناك آمنة لا تُراع !

هاجر

« إن الصِّفاً والمروة من شعائر الله فمن حج البيت
أوعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن
تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم » .
صدق الله العظيم

انطلقت بنا السيارة من « جدة » بسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا
الليل ويلفنا الظلام . وقد أخذتنا شبه غفوة حاملة ونحن نحدق في الجبال الصخرية التي تحف
بجانبي الطريق في شموخ ، وأشعة الغروب تلتقي ظلة رقيقة من ضوءها الشاحب على القمم
الجرداء ، ثم تنساب في رفق على السفوح العارية التي أرقها قيظ النهار .
وأوشكت السيارة أن تتم سبعين كيلومتراً ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصم
والتلال المتراكبة والأودية الضيقة المفروشة بالحصى والرمال .. ثم لاحت لنا « مكة » فجأة
من بين الفجاج ، فلم نتمكن أن هتفنا من أعماق قلوبنا في ضراعة وابتهاال :
« ليك اللهم ليك .. »

ورددت البطاح أصداً هتافنا ، فخيّل إلينا أن الوادي قد امتلأ بحشود المسلمين
الأولين ، تندفق من ناحية الشمال لتدخل « مكة » فاتحة مليية ، وعلى رأسها « القصواء »
ناقة الرسول ، تعود إلى البلد الحرام بعد أن تسالت منه خفية إلى دار الهجرة قبل ثمانى
سنين ، ناجية بصاحبها ﷺ ، من كيد طواغيت المشركين ومطاردتهم الشرسة ..

وظفنا بالكعبة سبعاً ، ثم خرجنا نسعى بين الصِّفا والمروة حتى إذا أتممنا المسعى جلستُ
على درج المروة ، تجاه الوادي ، وقد طاب لى حينذاك أن أعتزل الصبح زاهدةً فيما شغلوا
به من حديث .

ولم أكن حتى تلك اللحظة ، أفكر في شيء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذى صنعه
أمي^ي يتيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج من القوافل أجيراً أميناً لبعض أثرياء
التجار من قريش . ثم اصطفاه الله رسولاً ، فما مات حتى وطئ بقدميه أصنام الكعبة ،

وشهد بعينه راية الإسلام تحقق على كل بقعة في أرض العرب ، وسم بأذنيه « بلالاً » يتنادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » ، فيستجيب له بالجزيرة مئات الألوف من دخلوا في دين الله أفواجاً .

أجل ما كنت حتى تلك اللحظة التي أتممت فيها المسعى ، أفكر في شيء سوى هذا التاريخ المجيد الذي صنعه أمي يتيم ، هاجر من بلده ذات مساء مع صاحب له شيخ مُسن ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة ، وتلك حصون الطغاة والجبابة .

غير أني لم أكد أجلس على درج « المروة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامي داعين مكبرين ، حتى توارت عني مشاهد ذاك التاريخ الإسلامي ، ولم أعد ألمح سوى طيف « هاجر » وهي تهرول في هذا الوادي باحثة عن قطرة ماء لتروى غلة طفلها الغالي « إسماعيل » :

خرجت به من خيام أبيه إبراهيم - عليه السلام - طريدة منبوذة ، كل ذنبها أنها رزقت غلاماً ، وسيدتها « سارة » ، امرأة إبراهيم ، عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هي التي سعت إلى إبراهيم أو أغرته بالزواج منها لتبه ولدًا ، وإنما أذنت السيدة « سارة » بذلك في لحظة يأس ، ورضيت أن تتركها جاريتها المصرية في زوجها . لعل ذلك يروى غلته ويهدئ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما أذنت بذلك إلا وهي ترجو ألا تضر التجربة ، فيكف الزوج عن ذكر الولد ، ويئد في أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية . لكن التجربة لم تحقق ، وشاء الله أن تحمل « هاجر » فأحست السيدة العاقر لذلك مرارة كادت تفسد عليها حياتها ، وتخيل إليها أنها صغرت في عيني جاريتها ، فشكت ذلك إلى زوجها قائلة :

- ظلمني عليك ! أنا دفعتُ جاريتي إليك فلما حملتُ صغرتُ في عيني ! يقضى الربُّ بيني وبينك .

قال إبراهيم :

- هي ذى جاريتك في يدك ، فافعل بها ما يحسن في عينيك .
فلم تكذ سارة تظفر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت في إذلال هاجر إلى أن هربت منها وهامت على وجهها في البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعت في حجر إبراهيم ولده إسماعيل .

ولم تطق سارة على ذلك صبراً ، فإزالت إبراهيم تحضه وتغريه أن يطرد هذه الجارية وابنتها ، وهو يتردد مشفقاً . ثم استجاب لامرأته آخر الأمر ، ومضى بهاجر منطلقاً من خيامه ، وراح يضرب في الصحراء وهي تسير من ورائه صامته مستسلمة ، متشبثة بوليدها الرضيع ، لا تكاد تفكر في شيء إلا في نجاتها به . . .

* * *

وأبعد إبراهيم في السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمة القفر ، فوضع هناك هاجر وإسماعيل وترك لها جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء . ثم انثنى ليعود من حيث جاء . وتلفت الأم حولها فأفزعها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجروث على أن تخطو وراء السيد لتسأله مسترحمة :

- أين تمضي وتركنا بهذا الوادي المقفر حيث لا ديار ولا نافخ نار ؟
فلم يجب . .

وأعادت سؤالها مرة ، واثنتين وثلاثاً ، وهو منصرف عنها صامت لا يجب !
ولم يبق لها من بعد ذلك إلا أن تتساءل :

- الله أمرك بهذا ؟ !

وعندئذ أجاب إبراهيم : نعم .
ولم يزد . . .

قالت هاجر : إذن فالله لا يضيعنا . . . (١)

ورجعت إلى موضعها الأول عند أطلال البيت ، على حين مضى هو في طريقه لا يلتفت ، إلى أن غيبتة نية الوادي فاستقبل البيت العتيق بوجهه ودعا ربه في خشوع :
« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » .
واستأنف مسيره راجعاً . . .

* * *

ونخيم على الفلاة صمت مرهق لم يلبث أن مزقه لهاث أم عطشى ، وصباح رضيع جائع جف النبع الذي يغذوه ويرويه .

(١) مستخلص من (التوراة) و (تاريخ مكة) للأزرق . أما القرآن الكريم فلا يتعلق بتفصيل القصص ، تركيزاً على جوهر الموقف ومناطق الاعتبار

لقد نفذ الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفذ ما فى السماء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فكرته أمه وانطلقت تبحث له عن قطرة ماء . .

وحملتها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعدت فوقه لتشرف من عل على الوادى ، راجية أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة ، فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهولت حتى أتت « المروة » فعرجت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . . وظلت هكذا تهول من هنا إلى هناك ، ساعة بين الصفا والمروة . مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء . فتهاكت على الصخور منهوكة القوى لا تجرؤ على الدنو من صغيرها الملعوب .

وإذ تنأى إليها أنينه ، وغطت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع فقد كان سماع حشر جته وهو يختصر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحتمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

ووجمت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع : مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللهفة عليه مثل الجنون ! وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهات والأنين ، وبدأ كأن شبح الموت يلقي على الوادى ظلاله الكثيبة وهو يدنو من الطريدين المعدبين ، ليستريح منها الحقيقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فزحفت إلى حيث هداها الله ، وثم . . . ألفت نبعاً يفيض ماء !

وأكبت عليه تغرف منه ، حتى إذا ردت إليها الروح أحست باللبن يملأ ثديها ، فألقمته طفلها المشرف على الهلاك .

ودبت الحياة فيه من جديد ، وعاش ليعمر هذه البقعة المقفرة ببنيه وأحفاده . واستجاب الله لدعاء إبراهيم فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى الزرع ، وإذا النبع - بئر زمزم - يجذب القوافل فى آثار الرعاة ، فتغدو « مكة » على مر السنين المركز الرئيسى للتجارة فى شبه الجزيرة .

عاش إسماعيل ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبله أنظار العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ،

ومن الشمال والجنوب ، ليطوفوا بالبيت ويسعوا مهرولين بين « الصفا والمروة » حيث سعت « هاجر » مهرولة من زمن موغل في القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .
وهذه هي بئر زمزم ، ماتزال في مكانها قريباً من قبر هاجر ، يتزاحم عليها الحجيج ليلطفروا من نبعها بجمرة مباركة ، كذلك التي رَدَّت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يحضر !

* * *

ياله من تاريخ ! ..
إن جهاد أم في سبيل ولیدها ، قد تقبلته السماء عبادةً وقرى ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية المؤثرة للأمم ، سِفْراً يتلى في « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء إبراهيم آيةً منزلةً في « القرآن الكريم » . . .
وكان مسعى هاجر وهرولتها بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، عزيزاً على الإسلام ، كما كان عزيزاً على الأجيال من قبله ، فدخل في الشريعة الإسلامية شعيرة من شعائر الله في الحج والعمرة .

وظلت قصتها ملء التاريخ الديني ، على مر الزمان .
وما كانت « هاجر » سوى أمة طريفة مضطهدة ، نُبِذت مع ولیدها بالعراء في الفلاة الموحشة ، بوادٍ غير ذي زرع .
لكنها أم !

وكانت تلك الأمم حسبها عبادة وقرباناً !

مكة المكرمة : ١٩٥١/٢/٥

آمنة

« إلى التي عجز الرق عن استعباد قلبها ووأد
إنسانيتها ، وإقناعها بأن لاحقاً لها في معاناة
عواطف البشر ، تحية ، ورناء . . . »

بلغنا في رحلتنا بجزيرة العرب منطقة البحرين في أقصى الشرق ، وبدأ لي أن أزور
بعض العربيات الأصيلات ، المحجبات وراء أسوار منيعة من الأعراف والتقاليد .
فصحيّتي صديقة كريمة إلى بعض من تعرف من سيدات القوم .
وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يُفضى
إلى فناء داخلي ، تُفتّح عليه قاعة الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .
والفينا في استقبالنا شابةً مليحة سمراء ، قد اتكأت على إحدى الحشايا المنسقة فوق
السجاد العجمي . فنهضت لتحيتنا ، ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهها ظل
ابتسامة نحيلة متعبة .

قالت صاحبتني تقدمها إليّ : امرأة السيد .

ثم التفتت إليها قائلة :

— ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنت لما لقيتُك آخر مرة ، عليلة
تشكين .

فلاح على وجه « آمنة » ما يُشبه التساؤل ، وقالت لصاحبتني :

— كذا ترينني ياسبت ؟ حمداً لري ، أنا بخير ما بقيت في هذي الدار .
قالت لها السيدة :

— ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » وهي تقول في انفعال غاضب :

— ما أعرف لي داراً غير هاذلك المكان ، وليس لي في سواه مأرب ، ولا لي عنه
منصرف ، حتى الموت !

وصمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتني تسأل :

— وزوجك يا آمنة ؟ .

قالت الشابة وفي نظراتها مزيجٌ من الرعب والاحتقار :

— ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لي به شأن . طلقني منه سيدى ، له الشكر ولله

الحمد .

وكنْتُ أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم تقل صاحبتى إن آمنة امرأة السيد ؟
فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض ؟ وما مكانها من هذا البيت إذن ؟
وفيم تشبها به إن لم تكن ربه ؟ وكيف يُطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوجُ إن لم
يكن السيد ؟

ولحظتُ صاحبتى ما أنا فيه من حيرة فتبسّمت ضاحكة تقول :

— لا يدهشك ما سمعت . أصل الحكاية أن « آمنة » عاشت مع السيد سنين عدداً ،
زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوج آمنة من صانع أجير ،
أعجمى غريب . ويبدو أن آمنة لم ترض عن هذا الزواج ، فعادت إلى بيت سيدها ،
وهذه هى تقول إنها لا تبغى عنه حوْلاً .

رددت آمنة فى إصرار :

— هو ما سمعت : لن أتحوّل عن هدى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجونى مرة كرهاً ،
ولن يخرجونى منها ثانية وفى نفس ! أعرف أنى جارية ، أمة . مُستعبدة ، ليس لى أن
أرغمهم على بقائى هنا ، لكنى أعرف أيضاً أنى لن أطيق الخروج ، ولن أرغم عليه حياة ،
فليقتلونى إذا شاءوا ، أو . . . !

وبترت حديثها بغتة ، إذ دخلت السيدة ، فى تلك اللحظة لتحبى ضيفتها وانكشّت
« آمنة » فى مكانها تلتقى على السيدة وعلينا نظرات طويلة ، بدون أن تبسّس بينت شفة .
ونظرتُ أنا إلى السيدة : عروس فى ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة ، أنيقة معطرة ،
تميس فى دلال وزهو ، وقد رشّقت زهرتين فى شعرها الفاحم المتموج ، وارتدت ثوباً من
« الدانتلا » البيضاء ، وأزّينت كأنها تتهيأ لجلوة العرس !

وجىء لنا بالشاى والفاكهة فأصبنا منها ما اشتيناه ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا
النساء .

وعلمتُ أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط
إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفقت من ركوب الطائرة ؟ أجابت في مرح :
 - هيبني أشفقتُ ، فماذا بالله كنت صانعة ؟ إن الرحلة من المدينة إلى مكة على ظهور
 الإبل ، تستغرق عشرة أيام ، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء ؟ هل تريها نزهة طيبة
 لعروس لم تبحر « المدينة » قط ؟

فضحكنا جميعاً إلا آمنة ! قالت وهي تعبت بخيوط لقاعها :
 - أما أنا فما استطعتُ . سألتني سيدي أن أصبح به إلى المدينة يوم طار إليها ليأتني بالسيدة
 العروس ، فرجوته أن يعفني من هذه الرحلة ، إذ أني أخاف ركوب الجو . . .
 وصمتت بعد ذاك فلم تقل شيئاً ، حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردت « آمنة »
 قائلة وهي تنظر إليّ :
 - تالله ياسي ما كان بي من خوف ، وإنما ضعفتُ فكرهتُ أن أشهد بعيني جلوة
 العروس .

فسألتها صاحبتني :
 - وأي شيء في ذلك يا آمنة ؟ قسمة ونصيب ، وقدّر يجري عليك وعلى مثيلتك ،
 أفأ كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدار سواك ؟
 أجابت في بطء :
 - أجل توقعتُ ذلك . . . وتوقعتُ أن يلفظني هذا المكان على غير رغبتى وهواي !
 ويألى من حمقاء ! أقول رغبتى وهواي ، وإني لأعلم أن ليس لي ولثيلاقي حق الرغبة
 والهوى ! ! لكنه الضعف ، فاغفرا لي . . .
 وقلت وأنا أحدق في عينيها :
 - لا حاجة بك يا آمنة إلى الاستغفار ، فما أئمت ولا أذنبت . إني أفهمك يا أختي ،
 كما أفهم نفسي .

فوجئت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :
 - ولم لا يا آمنة ؟ أليس لك عواطف أنثى وطبيعة بشر ؟
 أولم تلدك أمك مخلوقة سوية من الفصيلة الآدمية التي ننتمي إليها ؟
 قتلل وجهها غبطة ، وامتلات عيناها بالدموع ، لكن وجوها عاودها بعد قليل
 فتهتت قائلة :
 - لست واحسرتها أعرف أبوي ، غير أني لا أفأ أتمثلني وليدة في حضن أم ! وكلنا

رأيتُ طفلاً يُسلم نفسه إلى صدر أمه ويغفو هائثاً بين ذراعيها ، هاجت شجوني وقلت
لنفسى : « كذلك كنت من قبل ! » ثم يشدُّنى واقعى فأراني ولا أمّ لى ! نسج الزمان بينى
وبينها حجباً كثيفة لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شيء .
وأمسكتُ عن الكلام ريثما دخلت السيدة وأخذتُ مكانها بيننا فاستأنفت « آمنة »
حديثها قائلة لى :

— سمعتك ياست تتحدثين عن رغبتك فى زيارة أحياء البلدة . لو شئت لأذنت لى فى
صحبتك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة أو بعض ساعة .
فأدركتُ على الفور أنها تريد أن تنطلق معى خارج الدار ، لتفضى إلى بهومها .
ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتى وصاحبتى ، وخرجتُ مع آمنة .
وتركتُ لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الخلاء ، على
حافة الصحراء .

وقادتنى إلى مكان منعزل بين كثبان الرمال وراء جبل الظهران ، ثم راحت تكمل رواية
المأساة :

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة غريبة لاهية ، ضلّت طريقها
إلى أمها فى زحام كبير لا تدرى اليوم إن كان زحمة سوق أو احتفالا بعيد . وألقت نفسها
بعد أيام تعبر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلم إلى رجل غريب يمضى بها على راحته
فى سفرة عبر الصحراء ، استغرقت نحو أسبوعين قبل أن تلقى بها فى « مدينة الرسول » لتعيش
هناك أعواماً ، وتتلقى الدروس الأولى فى مدرسة الرق وسوق العبيد ! !

ولم تكن الدروس فى مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة ، فقد اكتفى السادة من الولادة بأن
تلاعب صبيّة الدار ، وأن تلازمهم كظلهم أقاموا فى البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان
طعم الحياة هكذا سائغاً مقبولاً ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجدون حرجاً فى أن تشاركهم
اللعب ، أو يرون فيها غير رفيقة صباً وزميلة ملعب . حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تنزع من
بينهم . وتُدفع إلى قوم غرباء ، يرحلون بها من جديد عبر البيد والقفار . . .

وعبثاً حاولت أن تبقى مع من حسبتهم قومها ، وعبثاً حاول أترابها أن يحملوا أهلهم على
الإبقاء عليها ، فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء ! ولما حانت ساعة الرحيل
تمهلّت الصبيّة عند باب الدار تريد أن تملأ عينها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت

الدموع بينها وبين ما تريد . هنالك اندفع فتى من الرفاق يهتف بها ألا تحزن ، فإنه ماضٍ معها إلى حيث يُسار بها !
وأشرقت أساريرها بعد نهم ، على حين مضى الصبي يستأذن خالته . في السفر -
وكانت أمه قد ماتت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .
ولم تكد الخالة تسمع حديثه عن رغبته في مرافقة الوليدة حتى قهقهت ضاحكة ، ثم
تطوعت فألقت عليها درساً في الفارق الرهيب بين السادة والعبيد .
وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها الفتاة أن من البشر ما يباع ويشترى ، دون
أن يكون له من أمره شيء ، أى شيء !
وأدركت أنها من هذا الجنس المنبوذ الذى لا أهل له ، ولا وطن ، ولا أمس ،
ولا يوم ، ولا غد . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها في ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون
أن تلقى كلمة وداع للسيد الصغير الذى أعجزه أن يحمىها من مصيرها المحتوم ، فانشى يبكى
ها ، وعليها . . .
وأعفاها ذهولها المبالغ من وطأة الإحساس بالحنة ، أو لعل وضعها الأليم قد ألغى
حقها في مثل هذا الإحساس .

* * *

حتى إذا عاودها وعيها بعد أيام ، تلفتت وراءها تلتمس أطلال عالمها الماضى ، فلم
تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى : غامضة كثيفة ، موحشة جرداء . .
وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المناهضة الضالة العمياء !
وتناهى إليها في تلك اللحظة ، صوتٌ حادى القافلة يعد الإبل الرى والراحة بعد
الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكى . لكن نظرة صارمة من وجه المشتري الغريب ،
أمسكت الدموع في مقلتيها .
وتمنت آنذاك لو أنها ناقة في القطيع ! إذن لوجدت إلى جانبها من يحدها في رفق ،
ويغنى لها في حنان ، ويعدّها الراحة والظل والرى . . .
وهنا لم تقو « آمنة » على المضى في الحديث ، فتركها تبكى . حتى إذا أراحها البكاء
استأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب في البيداء أياماً وليالي حتى أشرفت على إحدى القرى ، وآن لنا أن نخط الرحال .

وقادني الغريب إلى دار رحبة ، حيث أسلمني إلى سيد كهل هناك ، « ففرس السيد وجهي حيناً ، ثم أسلمني بدوره إلى القائمة على شئون الدار . وبدأت عهداً جديداً ، شتان ما بينه وبين العهد الذي كان .

بدت لي الدار موحشة خراباً على الرغم من ضجيج النسوة اللواتي كن يملأنها . لأنني افتقدت فيها الصبية والأطفال ، وألفيتني أعيش وسط جمع متناكر من النساء ! كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن ميثاثلات في الزي والمظهر والمستوى ، وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنني ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلد له إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء .

وكانت هناك خامسة ، سبقتهم جميعاً إلى بيت السيد ، ثم تقدم بها العمر فتركت مكانها في الحريم ، وتفرغت لخدمة الدار ، يعاونها جمع من العبيد . وإلى هذه الأمة الكهلة ، ترك السيد أمري ، فقامت بمهمة إعدادي للمحل الذي ينتظرني بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد ، ألفتني بعده أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى من دون الزميلات بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه ! واستسلمت لحياتي الجديدة ، وقد أرضاني أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدت الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التي أوثرت بها : كنت إذا شعرت بوعكة ، حملني السيد بين ذراعيه إلى فراشي وسهر على رعايتي ، يسقيني الدواء ، ويملاً غرفتي بأطيب المأكولات . وكان إذا سافر ، عاد إليّ بادی اللهفة ، وملأ يديه غالي الهدايا من ثياب وحلى وطيب .

وكاد هذا التدليل لينسيني أني أمة ، لولا بقية من المראה كنت أشعر بها في كل ما ذكرت اللحظة الرهيبة التي ودعت فيها صباي الخليلي ، ولقنت الدرس الأول عن محنة الرق . . .

أجل ، كدت لأنسى . . لكن الزمان لم يسمح لمثلي بذلك .

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقني فيها انتظاره ، فتشاغلت بتصور لطفته عليّ ، حين يثوب من سفره مثقلاً بشوقه ، وهداياه . . .
وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواجدة إلينا جميعاً ، أمة جديدة أنزلها المنزل الأول الذي كان لي ، وادخر لها ما كان يؤثرني به من رعاية وتدليل !
وانزويت في الدار مقهورة أحاول أن أستسلم ، فما كان من حق أن أثور أو أحتج ، أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال المحظية الجديدة وشماتة الأربع القديمات ، وأن أصغى إلى نصيح صديقتي الأمة العجوز التي حرصت على أن تमित حسى رحمة لي ، فما يجدى الألم فيما لا يدلنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره !

أجل حاولت ، وسهرت الليالي في كفاح ، أليم غايته أن أخنق بشريتي وأعطل مشاعري ، حتى أفلحت في أن أهمل فوق قلبي وروحي أكواماً من رماد المدارة والتصبر والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارت بغتة ذات ليلة ، حيناً رأت السيد في غرفتي التي هجرها نصف عام !

وكان بيننا موقف أليم ، عنيف مثير : أصرّ على أن أبقى حيث كنت ، كما فعلت زميلات لي من قبل . وأصررت على أن يبيعني ليعفيني من العيش في ذباك الجحيم . قال مهدداً :

— لو ظللت على عنادك ، بعثك لبعض الرعاة الأجلاف .

فهتفت به متوسلة :

— افعل ! افعل بالله . . . إن العيشة الخافية الغليظة الخشنة في مضارب البدو ، أجمل في عيني من البقاء في هذه الدار الرحبة ، رافلة في حلل من حرير !
فاشترط لكي يفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديدة ، ريثما يختار لي من يشتريني ويدفع الثمن .

وجاء المشتري ، وكان شاباً مهذباً من رجال الحكومة ، مرّبنا في رحلة له إلى نجد ، وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة أهون من سابقتها ، ولذلك عجبت حين شعرت

بشجن عميق يملأ نفسى ، لما قبلتُ يدَ سيدى للمرة الأخيرة ، وحيثُ صديقتى الأمة العجوز ، ورفيقتى اللواتى أحطن بى مودعاتٍ داعيات .
ولم أطق أن أطيل النظر إلى غرفتى التى تلقنتنى صبيةً غريبة ، وأخرجتنى إلى الدنيا بعد ست سنين ، شابة قد شربت الكأس حتى الثمالة ، وبلت عيشة النساء ، واكتوت بنار الهجر والغيرة والقهر .

وذكرتنى رحلتى إلى « نجد » برحلتى الأولى من المدينة ، فلبثت أيام السفر صامئة حزينة ، وأشهد أن سيدى الجديد كان رفيقاً بى طوال الطريق ، لم يضق بوجومى وانقباضى ، بل تركنى أجتر أحزانى فى هدوء !

حتى حططنا الرحال فى « الأحساء » فأدهشنى ألا أجد فى الدار امرأة سوى .
واتخذنى سيدى صاحبةً له ، وزوجة . وربة بيت . فتفتح له قلبى المغلق ، وذقت لأول مرة طعم الحب ، واستمرأت حلاوة هذا الرق الجديد ، فأنيةً فى السيد الحبيب ، وامتد بى هذا الحلم الهنىء حتى أتم سبع سنين . . .

ثم كانت اليقظة الفاجعة !

أنكر الناس على رُجلى أن يقنع بأمةٍ عقيم ، وزينوا له أن يأتى بأخرى قد تُثبت البذرة التى عجز كيافى المجدب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس فى أذن سيدى وقع السحر ، فطار إلى « المدينة » وعاد بغروس من الحرائر ، حملت له البذرة المشتهة ، ولم يهن عليه أن يبيعنى ، فأخرجنى إلى دارٍ قريبة ، زوجةً لصانع أجير .

وحاولتُ هذه المرة أيضاً أن أستسلم لِقَدْرِى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى ، متشبهاً بالدار التى أظلمت سبعة سنين ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيد والأب والأخ والزوج والحبيب !

قال لى سيدى : صبراً يا أمة ، فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام .
لكن الأيام مرّت والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق ، واشمئزاً ومقتاً .
هربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدى يردنى إليه فى كل مرة ، ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتمال .

حتى غلب الصبرُ ونفذ الاحتمال ، فأبيتُ على الزوج الكريه أن يمسنى . ولما حاول أن يُخضعنى بالقوة ، عدوت هاربةً فى جوف الليل ، ولدت بدارى الأولى ضارعةً إلى السيدة

أن تدعني أعيش لها أمةً خادمة منبوذة ، أوفلتأمر السيدَ بانتزاع روجي من جسدي إذا شاءتُ ألا أبقي تحت سقف هذا البيت .
واستجابوا لي ، فكان الطلاق والخلاص . وتُركتُ حيثُ أريد ، مكتفيةً بأن أسمع صوت سيدي ، وأرى وجهه ولو من بعيد . . .
وذاك حسبي من دنياي . .

* * *

قلت لآمنة ونحن عائدتان إلى الدار :
- ترين يا آمنة ، لو وهبك السيد حريتك . . .
فلم تدعني أكمل العبارة ، بل قاطعتني في مرارة :
- وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أي مكان لي على هذه الأرض إذا لفظتني الدارُ التي كانت لي يوماً جنة الحب ؟ ما انتفاعي بحياتي كلها ، وقلبي مصفدٌ بأغلال رقه وهواه ؟
ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أكبّت على يدي تقبلها وهي تهمس :
- شكراً ياستي ، ألف شكر ! كنت كريمة إذ رأيت فينا معشر الإماماء ، مخلوقات بشرية ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وخنق عواطفها وإقناعها بأن لا حق لها في الحب أو التآلم ، أو الحب ، أو البغض .
وغابت « آمنة » عن عيني ، فلم أرها حتى همت بمغادرة الدار ، وإذا ذلك لحتها نخطو نحونا شاحبة متداعيةً ، ثم تقف بباب العربة لتقول :
- في أمان الله . . .

الخبر : جزيرة العرب ١٠/٢/١٩٥١

أصدقاء من الجزيرة

مِنْ بَعِيد

أكتب هذا وماتزال ملء مسمعى أصداً آتية من بعيد ، لسمراً أدبى ممتج ، ملأ إحدى أمسياتنا الحافلة في شرق الجزيرة حين اجتمعنا بإخواننا علماء « القطيف » ، وأدبائها على ساحل الخليج .

* * *

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد ، فما دار بخلدنا ونحن نهياً للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على أن نبلغ أقصى مشرقها . في رحلة ضئيلة الزاد ، لولا ضيافة جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطويت لنا الأبعاد واستطعنا أن نتقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء فالخليج
هنالك ذكرنا « القطيف » فما ذكرنا ، ورأينا حقاً علينا أن نلم بمكان لعب في تاريخنا الدينى والسياسى والأدبى دوراً ذا بال .

وما كان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور منطقة البحرين التي كانت منزل « بكر بن وائل ، وعبد القيس » وفي ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم في الأدب العربى مكان أى مكان . ومن وراء مرتفع الصمّان ^(١) الصخرى الذى يتوسط بينها وبين الدهناء فيعزلها عن نجد ، تسلفت جموع « القرامطة » ^(٢) في القرن الثالث الهجرى ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كاعصار مارد ، يلقون العرب في القلوب ويعيثون في الجزيرة فساداً ، ويأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين في القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى هَجَرَ ^(٣) . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم « أبو طاهر الجنائى

(١) الصان : مرتفع صخرى متاخم للدهناء . قيعانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٣٨٣/٥ .

(٢) القرامطة : جماعة متمردة ، عاثت في الشرق الإسلامى فساداً في القرن الثالث الهجرى ودوخت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين ، ومقر عصابة القرامطة ، التي أرادت أن تجعل من (هجر) المركز الدينى للإسلام ، بدلا من مكة . راجع (تاريخ أبى الفدا ٩٠/٢ ، ومعجم ياقوت ٤٤٦/٨) .

القرمطي^(١) يتسلق أسوار البصرة في نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على الكوفة ويتسلم الأنبار ويفتك بعسكر للدولة عدته بضعة عشرات من الألوف ! .
أجل ، كان حقاً علينا ونحن في الأحساء أن نلم بالقطيف ومنطقة البحرين ، فضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركن عترة لا يقاتل بعدها أهل القطيف قتال خيل تنفع !
وقول الآخر :

نصحت لعبد القيس يوم «قطيفاً» فما خير نصيح قيل لم يُقبل ؟
فقد كان في أهل القطيف فوارس حاة إذا ما الحرب ألفت بكل كل

* * *

سارت بنا السيارات إليها في الطريق الصحراوي المعبد من ميناء الدمام ونحن نرنو في صمت إلى الصحراء الممتدة ، وقد أذابت شمس الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة ، وألقت عليها غلالة رقيقة متموجة . ولاحت لنا « القطيف » من بعيد ، واحة ناضرة على جافة الصحراء ، وجنة خضراء على طرف القفر المجدب ، ومراحاً خصباً عامراً شمالي الربيع الخالي . وقد تعلقت بها أبصارنا ، حين بدأت السيارات تتعثر في دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ، وتجرى فيها العُدران فياضة بمياه العيون والآبار .
وتهادى إلينا نسيم المساء رخيلاً عليلاً معطراً بأريج الأزهار وشذا الثمار ورائحة العشب ، ويزغت أضواء الشفق الوردى فتوجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفدت من بين السعف واستلقت في وهن وتراخ على صفحة الغدير المتألق ، وفوق العشب الندي ، غير مكترثة لصراخ أبواق السيارات ، ولا عابئة بنباح الكلاب في آثار القطعان .
وكذلك استغرقنا نحن في خمول هنيء ، لم نكد نفيق منه إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم يستقبلون ضيوفهم أبناء النيل .
وأبى الكرام أن يكتفوا منا بحفلة الاستقبال في دار « السيد حمود : أمير القطيف » أو جولة عابرة في المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس حافل أعيد لنا في بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان » أحد الأدباء الأعيان .

وكانت أمسية لا تنسى !

(١) أبو طاهر القرمطي : سليمان بن الحسن أبي سعيد ، زعيم القرامطة ، مات بالجلدي في هجرة ٣٣٢ هـ .
راجع (تاريخ أبي الفدا ٩٠/٢) .

لم يبق في القطيف من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقى إلينا كلمة تحية وعتاب :
أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبله أنظار الشرق العربي ، ومهوى عقول أبنائه ،
وكعبة الرواد والقاصدين من طلبة العلم وراغبي الثقافة .
وأما العتاب فلأدباء مصر الذين نسوا أن في شرق جزيرة العرب واحدة اسمها القطيف ،
شاركت في صنع تاريخنا الإسلامي وتركت في تراثنا الأدبي أثرها الباقي الذي لا يزول .
إن « دارين »^(١) ما تزال هناك ، ترجع صدى أغاني « النابغة »^(٢) الجعدي
و « الفرزدق »^(٣) وغيرهما من الشعراء الذين لم يجدوا ما يشبهون به عرف الحبيبة أذكي من
مسك دارين . وإن بساتين « هجر » باقية حتى الساعة ، مشمرة غناء ، تبسم للضارين في
الصحراء ، وتعددهم الظل والتمر والماء ، كما كانت في قديم الزمان يوم ضرب العرب بها
المثل :

« كحامل التمر إلى هجر »

وهناك ، ما تزال آثار من الكعبة تروى قصة ذلك الحلم الأحمر الذي راود « أبا طاهر
القرمطي » وزين له أن يجعل من « هجر » وارثة لمكة ، فوافى البلد الحرام إبان موسم الحج
من سنة ٣١٧ هـ ، ودخله في تسعة من شيعته ، فقتل أمير الكعبة ، وفلك بألوف من
الحجيج في المسجد وفي فجاج مكة ، وقلع باب الكعبة ، وانتزع الحجر الأسود ثم اعتلى
سطح البيت وهو يصيح :

أنا بآلة وبالله أنا يخلق الخلق وأنبيهم أنا !

قيل إنه قتل بفجاج مكة وظاهرها ، زهاء ثلاثين ألف نفس ، غير من سبي من نساء
وغلمان . وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد في موكبه الحافل بحمل الحجر الأسود إلى « هجر » فبقى
بها هذا الأثر المقدس نيفاً وعشرين سنة ، حتى أعاده القرامطة إلى مكة عام ٣٣٩ هـ وهم
يقولون :

« رددناه بأمر من أخذناه بأمره ! »

(١) دارين : فرصة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند ، وقد نفى الشعراء بمسكها . راجع (معجم باقوت
٥٣٧/٢ ومعجم ما استعجم للبكري ٣١٥/١) .
(٢) النابغة الجعدي : أبو ليلى بن عبد الله - شاعر جاهلي مقدم ، أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام وأنشده
شعراً ، راجع (الإصابة ، وطبقات الشعراء لابن سلام والأغاني ١/٥ ط دار الكتب) .
(٣) الفرزدق : مام بن غالب بن صعصعة أحد أمراء الشعر الثلاثة في العصر الأموي ، وأبرعهم في الفخر ،
انظر (الأغاني ٣٢٤/٩ ط دار الكتب) .

أما تستحق بلاد البحرين بعد هذا لفظة من أدباء مصر ، ودارسى التاريخ الإسلامى والأدب العربى ؟

إنهم ليحجون إلى الحجاز ألوفاً ذات عدد كل عام ، وإن منهم من يتدب للعمل أو التدريس فى البحرين ، واليمن والكويت ، فهلا ألم بالقطيف من كل أولئك زائر ؟

* * *

وهى ، على الهجر الأليم ، لا تكف عن ذكر مصر ، وتتبع نهضتها العلمية والأدبية ، إنها فى معزلها النائى المهجور على ساحل الخليج ، تستورد البضاعة الأدبية من ضفاف النيل ، وتعرف عن سير الفن والحياة بها ، وأعلام الأدب والفكر فيها ، ما قد يجهله المصريون أنفسهم ، لا أكاد أستثنى منهم سوى قلة من خاصة المتعلمين .

كم تأملت وأنا أصغى إلى حديث أدباء القطيف عن مدارسنا الفكرية ومعاركنا النقدية ومذاهبنا الفنية ؟ كم خجلت وأنا أرى فى أيديهم كتبنا ومجلاتنا ، نحن الذين لا نشعر بهم أو نلقى إليهم بالا ؟ كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر « عبد الرسول الجشى » يُعرفنا ببلده الذى هو قطعة من وطننا العربى :

هذى بلادى وهى ماضٍ عامر	مجداً ، وآتٍ - بالمشيئة - أعمر
ألقى عصاه على فسيح ضفافها	وعلى الجزائر ، عالمٌ متحضر
وأذلت التيار تحت شرايعها	فلها عليه تحكُّمٌ وتأمر
وترى السفائن بالتوابل والحلى	والعطر من بلدٍ لآخر تُحمَلُ
شهدت موانئ الهند خفق قلوبها	فكانها فوق المياه الأنسر
ولها على وادى الفرات ودجلة	فضل المعلم وهو فضلٌ يؤثر

* * *

وأنت « ربيعة » وهى غرة يعرب	وأذُبها يوم الكفاح وأصبر
وأعزها جارا وأكثرها قرى	إذ يحلُّ البلد الخصب ويُفقر
فراحت بها الوطن الخصيبة أرضه	للماء فيه تدفق وتفجر
والنخل وارفة الظلال كأنها	جيش كثيف بالخليج معسكر
تهدى لها الصحراء فى السحر الصبا	فتمر كالحمم اللذيد وتخطر
والبحر يُهديها اللآلئ زينة	وتجارة فيها الغنى يتوفر
وكصفحة المرأة جو مشرق	وكلوحة الفنان ريف مزهر

ورأت بها لغة العروبة بيئة شعريّة توحى ، وجواً بسحر
فإذا الضفافُ نشائدٌ مسحورة وكأنما في كلِّ خلقٍ مزهر
الملهمون المبدعون تسابقوا فيها بمدرجَةِ الخلود وشمروا
شعراء «عبد القيس» تهزج بالهوى فيجيبها من «بكر» رهطُ أشعر
فيها جنى «ابن العبد»^(١) حُلُو شبابيه راح وريحانٌ ، ووجهٌ أقر
وخيالٌ «خولة»^(٢) يستثير غرامه فيظل في أطلالها يتحسر
والجعفر الخطي فنٌ خالد وروائع غنى بهن السمر

* * *

على مثل هذا كان يدور السمر في أمسينتنا ببستان الأخ «السيد عبد الله إخوان» في القطيف . والآن وقد رجعت إلى مصر ، أرى حقاً على أن أنقل إلى قومي بعض أصداء ذلك المجلس الأدبي ، ليعلموا أن على ساحل الخليج في أقصى الشرق من جزيرة العرب ، علماء مجتهدين وشعراء ملهمين ، يتطلعون إلى مصر ويحتفون باسمها ، ويباركون ثمار نهضتنا في العلم والفن ، «ويعتزون - كما قال الأخ السيد حسن بن علي أبو السعود - بما بيننا من روابط الدم واللغة والعقيدة ، ويكنون لأبناء الكنانة كلَّ تقدير ومودة ، ويرون في الثقافة المصرية الموردَ العذبَ النмир» .

ويالها من روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها علينا من حق ، وتشبث بها إخواننا هناك ، لما كادوا يروننا حتى هتف مضيفنا الكريم : «ليت هذه الزيارة التي طالما رنونا إليها ، تكون فاتحة تعارف وهمة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمس حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح ، نحن بنى الضاد ، كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء» .

وقال الأديب «محمد سعيد الشيخ الحنيزي» :

إن بيننا وبين الصفوة الأمناء من أدباء مصر ومفكرها ، تياراً متصللاً في الفكر والروح ، مهما تنأ بنا الديار ، وتفصلنا يدياء وبحار :

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهلي المشهور

(٢) خولة : حبيبة طرفة ، وفيها يقول ، في مستهل معلقته :

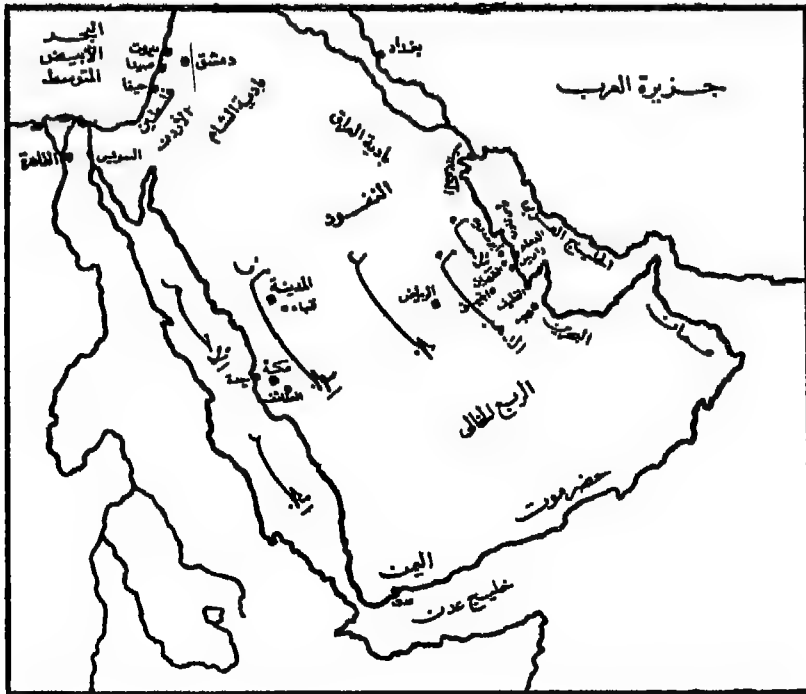
لخولة أطلات سرقة شهيد تلوح كافي الوشم في ظاهر اليد
وقوفاً بها صحى على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد

إن القطيف ومصر شعب واحد
ففي نرى هذى الصفوف توحدت
وقال الشاعر « محمد سعيد الجشي » :

هذى القطيف شيوخها وشبابها
فلتخبروا مصر العزيزة أننا
هذى ربوع العرب مهة واحد
وشعوبها أمم موحدة الهوى
لييكم أيها الإخوان الكرام ! هانذى أبلغ الرسالة وأسجل أصداء ما سمعت منكم
هناك ، فهل ترى يبلغ صوقي مسمع الأدباء والدارسين من بنى وطنى ؟
أرجو ، وآمل ..
وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة جميعاً ..

من بنت الشاطئ

مصر الجديدة : مايو ١٩٥١ .



(٢)

لقاء مع التاريخ

١٣٩٢ هـ : ١٩٧٢ م

•

● لبيك اللهم لبيك

● في دار الهجرة

● عوداً على بدء

* * *

● من وحي الملتقى

- من ذرا عرفات إلى سفح المكبر

- أغنية للعيد

- رسالة العيد

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

على غير موعد كان هذا اللقاء مع التاريخ .
 كنتُ إلى شهر ذى القعدة من عامنا الحالى - ١٣٩٢ هـ - فى المغرب الأقصى مشغولة
 بدراساتى القرآنية فى جامعة القرويين ، أرى فيها الجهاد والعبادة .
 وقومنا هناك مشغولون بمراسم الوداع الخمسة عشر ألفاً من الحجاج المغاربة ، فى
 حفلات سيطرت على ديار المغرب ، وملأت الأفق بموشحات وأناشيد أرهفت شوق
 القاعدين ، وأنا منهم .
 وأرقتى الحنين إلى الحرمين ، من حيث بدا أن لا مكان لى على الطائرات المحجوزة
 كلها ، إلى آخر يوم يدرك موسم الحج .
 وقد دنا الموعد ، والأمل يبدو بعيداً . .
 ثم أذن الله تعالى فهياً لى الأسباب من حيث لا أتوقع . وفى أيام معدودات كانت
 إجراءات سفرى قد تمت بفضل همة السفير السعودى فى الرباط « السيد فخرى شيخ
 الأرض » وصحبتنى مروته حتى ركبنا الطائرة من الدار البيضاء ، مع آخر فوج من
 الحجاج المغاربة .
 ومعى ما تيسر من الدراهم ، وزاد قليل من الخبز القديد والإدام الجاف ، قدّرت أنه
 يكفينى مع التقشف ، فى رحلة نسك وعبادة .

* * *

بلغنا مطار جدة فى الصبح الباكر من يوم الجمعة ، الرابع من ذى الحجة ، لأجد
 نفسى فى ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » من حيث لم أحسب أنه ما يزال
 يذكرنى ، وآخر عهدنا باللقاء مجلس سمر فى أمسية قاهرية بعيدة ، طربنا فيها على نغم
 قصيدته الشجية (سمراء) .
 وأثار لقاءنا الجديد شجون ذكريات لمجالس حافلة جمعتنا قبل عشرين سنة فى جدة
 وفى مصر ، كنا فيها نستقبل الحياة والدنيا بخير وبالخالى .
 وفيما كنا فى المساء بقصر جدة ، نسترجع الذكريات وتتناشد الأشعار وتتناشكى أشجاننا

وهوم أمتنا وتندبر عبدةً أيامنا وليالينا ، استأذن زائر من رجال المراسم الملكية ، تحدث إلى سمو الأمير « عبد الله » فالتفت إلى ليبلغنى متلطفاً ، أننى انتقلت من ضيافته إلى ضيافة جلالة الملك الفيصل ، حفظه الله .

وخطر على بالى وأنا مأخوذة بهذه الرعاية الكريمة المضاعفة ، ما جئت به معى من زاد الخبز القديد والإدام الجاف ، حملته من أقصى المغرب إلى جدة ، عبر قارات ثلاث . وبقي على أن أتدبر حيلة للتصرف فى توزيعه بوسيلة أو بأخرى . . .

وشهدتُ الموسم مع مليون وخمسين ألف حاج ، وسِعَتْهم الأرض المباركة حيث يقضون مناسك حجهم معاً ، ويتحركون فى وقت واحد من المطاف إلى مقام إبراهيم فالمسعى ، ويبيتون جميعاً ليلة الوقفة فى منى ، ويبكرون معاً فى الصبح إلى عرفة ، ومنها يفيضون بعد غروب الشمس إلى مزدلفة ، ومعاً يعودون إلى منى فتزويهم أيام التشريق على رحبٍ وسعة !

وإن أكبر عواصم العالم لتضيق ببضعة ألوف من السائحين ، إن طرءوا عليها فى وقت واحد . . . ويُعيها أن تدبر لهم المنزل والطعام ووسائل الانتقال . .

* * *

فى كل خطوة وكل موقف ومشهد ، وجدتُنى مع التاريخ فى أم القرى والبيت العتيق :
مدنية العصر قد غزت الوادى الأجرد غير ذى الزرع ، وأسراب الطائرات والسيارات قد حلت محل النوق والجمال ،
والكهرباء أبطلت وقود الحطب ،
والرخام يرصف ساحة البيت العتيق وطريق المسعى ، مكان الحصى والرمال .
والمباني العصرية تقوم حيث كانت الدور البدوية البسيطة .
ولا شئ من هذا كله ، يمس روح المكان . .
تغير الشكل والمظهر ، وبقي للمكان جوهر شخصيته التاريخية ، يتألق بنور قداسته ويتوهج بسنا أصالته وعراقته .

والكعبة تستبدل بكسوتها كل عام أخرى جديدة ،
وتبقى شخصيتها بمنأى عن طوارئ التغيير : مثابة الحج ومهوى الأئمة ، وبيت الله الحرام ، أقدم بيت عُد فيه سبحانه وتعالى على الأرض ، وأحب أرض الله إلى الله ورسوله وأمة .

وكذلك تتغير أشخاص الحجاج موسماً بعد موسم ، وتختلف شخصياتهم من جيل إلى جيل .

والسَّمْتُ واحد ، على تفاوت الأجيال ،

والشعائر والمناسك واحدة ، على تباعد السنين والقرون . .

ويتصل الحاضر بالماضي عبر حقب ودهور ، في هذه البقاع المباركة التي تحتفظ بجوهر شخصيتها منذ عرفها التاريخ مثابة للحج وأمناً ، فلسنا نراها اليوم إلا كما رأها آباء لنا وأجداد على مر الزمان :

لبوا كما لبينا ، وطافوا مثلاً طفناً ، وسعوا كما سعينا ، ووقفوا بالمسعر الحرام وعلى عرفات كما وقفنا ، ونفروا إلى المزدلفة كما نفرنا ، ونحروا في مِنى كما نحرنَا ، وباتوا بها ليلة الوقفة وليالي التشريق حيث بتنا .

والأماكن غيرها تتغير وتتبدل ، فيطمس جديدها معالم القديم ، ويَدُكُ عمراتها المحدث أطلال العتيق ، فلو أن أحداً من أهلها غاب عنها بضع عشرات من سنين ، ثم عاد إليها ، لأنكرها وأنكرته ، وأعوّزه فيها ترجان ودليل . .

* * *

كم عرفت الدنيا بيوتاً غير هذا البيت العتيق !

كم شيدت من قبله ومن بعده ، قصور باذخة ومعابد شاذة وصروح مبردة شاهقة ! وهذا البيت العتيق حيث هو منذ كان ، تتضاءل دونه أبهى البيوت وأفخم القصور وأعلى الصروح !

وراء المعروف من تاريخه الديني ، دهور وأحقابٌ موهلة في أعماق ما قبل هذا التاريخ ، شهد الزمن فيها موضع هذا البيت ملاذاً للضارين في مفاوز القلا ، يلتمسون لديه الأمن والراحة ، ويؤدون في حياه شعائر عبادتهم التي ارتدت في ظروف مجهولة إلى وثنية ضالة ، هجرت البيت العتيق فلم يبق منه سوى أطلال جذبت إليها « إبراهيم » فجاءها من أرض كنعان ، وترك عندها ولده إسماعيل مع أمه هاجر .

لم يجد لها ملاذاً سوى جوار البيت المحرم العتيق عندما ضاقت بهما امرأته السيدة سارة وأصرت على ألا يضمها وجارتها الولود سقف بيت واحد .

في جوار البيت العتيق أنزلها ، وانصرف عائداً إلى أرض كنعان وهو يدعو ربه : « ربنا إني أسكنت من ذرتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة ،

فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .
 واستجاب الله لدعائه ، ونظر إلى الأم المنبوذة قد أجهدها السعى بين الصفا والمروة بحثاً
 عن قطرة ماء أو أثر لحياة في الوادي القفر الماحل .
 حوّم طائر على المكان ونبش في الأرض فانبعس الماء من نبع زمزم . ونجا إسماعيل ،
 وابنت الحياة في القفر : مرّت قافلة من جرهم قرب المكان ، فلمحت الطير محمّماً عليه ،
 واتجهت نحوه لعلها أن الطير لا يحوم على غير ماء . وألقت رحالها حول النبع المبارك .
 وبورك مسعى الأم بين الصفا والمروة ، فأخذ موضعه بين شعائر الله في الحج .
 فذلك هو مسعانا مهرولين بين الصفا والمروة ، مثلما سعت هاجر التي دخلت التاريخ
 الديني بهجوم أمومتها ، وأعطت « عيد الأم » عندنا قيمته ومعناه .
 وعاد إبراهيم إلى ولده وقد بلغ معه مبلغ السعى ، فأفصى إليه برؤياه : أن يذبحه قرباناً
 لربّ هذا البيت العتيق .

وامثل الفتى لأبيه في أمر ربه صابراً لم يتردد . . .
 ثم تجلّت رحمة الله بعد ذلك البلاء المبين فكانت آية الفداء :
 « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا
 أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ
 يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَفَدَيْنَاهُ
 بِذَبْحٍ عَظِيمٍ .
 وخلّد المشهد شعيرة من شعائر الدين ، فكلها هلّ عيد الأضحى نحرن الضحية في منى ،
 أوحيناً نكون ؛ ذكرى وعبرة ، وإحياء لمشهد البذل والفداء طاعة وتقوى .
 والعبرة في الشعائر بالتقوى :

« لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ » .
 « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .
 وبلغ الذبيح المفتدى أشدّه ، فأصهر إلى جرهم وتعرب فيها لتعمر مكة بذريته العرب
 العدنانية المتعربة .

وتلقى العهد مع أبيه إبراهيم :
 « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنّاً واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى ، وعهدنا إلى
 إبراهيم وإسماعيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » .

واستجابا لأمر الله تعالى واتجها إليه بالضراعة والابتهال والدعاء :

« وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

فتلك هي صلاتنا في مقام إبراهيم بعد الطواف بالكعبة في حجٍّ أو عمرة .

ومن ذلك المأزج الموهل في القَدَم ، كان الأذان في الناس بالحج إلى بيت الله المحرم المطهر :

« وإذ يُوَافِقُ إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » .

وتأصلت حرمة أم القرى لموضع هذا البيت منها ، لما عرف التاريخ سواها عاصمة دينية للعرب في الجاهلية .

وقد غبرت عليها عصور بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ارتدَّ فيها العرب إلى الوثنية ، دون أن تفقد مكة حرمتها فيهم ، أو ينقطع حجهم إلى بيتها العتيق .

وغلب عليهم اليقين أن مكة (لا تُقَرُّ فيها ظُلْمًا ولا بغياً . ولا يبغي فيها أحدٌ على أحدٍ إلا أخرجته ، ولا يُريدُها ملكٌ يستحلَّ حرمتها إلا هلك مكانه) .

والمرويات عن تاريخها مع الجبابرة المفسدين ، شاهدة على رسوخ ذلك اليقين^(١) :

بغى فيها جرهم ، فأخرجهم بنو إسماعيل منها أذلة صاغرين ، يبيكهم شاعرهم راثياً :

كأن لم يكن بين الحَجَّونِ إِلَى الصَّفا أنيس ولم يسمر بمكة سائرٌ وهم^(٢) « تُبِعَ الْجَمِيرُ » بالبيت العتيق يريد إخراجه ، فيروى أنه رمى بداء تمخض منه رأسه قيحاً وصديداً ، وتيبست أطرافه وأعيا الطبَّ علاجه . حتى نُصَحَ بأن يرجع عما أراد بالبيت العتيق .

وحملوه فطاف به معظماً ، وكسا الكعبة وأطعم الناس ، فنجأ . .

(١) اقرأها بتفصيل في الجزء الأول من : السيرة النبوية لابن هشام ، وطبقات ابن سعد ومعها : تاريخ الطبري ، وتاريخ مكة للأزرق .

وهلك من بعده صاحبُ الفيل « أبرهة الحبشي » : كان قد بنى كنيسة فخمة في صنعاء ليصرف إليها حجَّ العرب . وجلب إليها (الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب ، من بقايا قصر بلقيس ملكة سبأ . ونصب فيها صُلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس . ثم كُتب إلى مولاه نجاشي الحبشة : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبنَ مثلها الملك كان قبلك ، ولست منتهاً حتى أصرف إليها حجَّ العرب) .
لكن أبرهة هلك دون غايته .

منع الله بيته الحرام ، وسلط على أصحاب الفيل وباءً مهلكاً ، رمىهم بجراثيمه طير أبابيل ، فجعلتهم كعصف مأكول .

ولم يكن لمكة عهد قبل ذلك بوباء الجدري ، فيما نقل « ابن هشام » في (السيرة النبوية) . وبقي البيت العتيق في أم القرى مثابة للناس وأمناً ، ومثابة الحج لقبائل العرب جميعاً . وبلغ من رسوخ اليقين بحرمته ، ما تناقلته الأجيال إلى قبيل عصر المبعث في تفسير لوثنى أساف ونائلة ، تذكره السيدة عائشة أم المؤمنين فتقول فيما نقل ابن هشام :
« مازلنا نسمع أن أساف ونائلة رجلا وامرأة أحدثا عند الكعبة ، فسخها الله حجرين لاعتدائهما على حرمة الكعبة » .

وفي ليل الجاهلية ، بقيت ذكرى مناسك الحج على تقادم الزمن من عهد إبراهيم وإسماعيل ، وإن مسختها الوثنية العمياء ، طقوساً صماء .
ويقدم التاريخ تفسيراً دينياً لهذه الوثنية ، يرتبط بقداسة البيت العتيق عند العرب ومزله في عقبتهم وقلوبهم ، فيما نقل « ابن هشام » بالسيرة النبوية :
« أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أن كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم وتفسحوا في البلاد ، إلا حمل معه حجراً من حجارة البيت تعظيماً للحرم . فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة » .
ثم مع الزمن ، تاهت الدلالة الرمزية ، وبقيت الحجارة أصناماً يعبدون فيها ربُّ هذا البيت لتقربهم إليه زلفى : « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

* * *

وكان لمكة في الجاهلية الوثنية ، أشهر أربعة حرم ، لا يحلُّ فيها قتال إلا أن ينسأها لهم أحد النساء ، فيؤجل حرمة الشهر منها إلى آخر من الأشهر غير الحرم .

النساء كان وظيفة من الوظائف الدينية العريقة التي تعتر بها القبائل ، فيقول « عمير بن قيس » يفخر بالنسأة من قومه بنى مالك بن كنانة :
 ألسنا الناسئين على معدٍّ شهورَ الحِلِّ نجعلها حراما ؟
 كما افتخر « أوس بن تميم السعدى » بما كان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرحُ الناس ما حَجُّوا مُعَرِّفَهُمْ حتى يقال : أجزوا آلَ صَفْوانا
 مجدُّ بناه لنا قَدَمًا أوائلُنا وأورثوه طوالَ الدهرِ أخرانا
 وفي قريش ، كان شرف وظائف سقاية الحجيج ورفادتهم في الموسم ، وراثة من جدهم « قصي بن كعب بن لؤى » المضرى العدناني .

ويذكرون من خبر السقاية ، أنها لما آلت إلى « عبد المطلب بن هاشم » - جد المصطفى عليه الصلاة والسلام - شقَّ عليه ما يلقي الحجيج من شُحِّ الماء . فذكر بثر زمزم التي أنقذت جده إسماعيل وجذبت إلى مكة قوافل الرعاة . وكان الناس إلى زمن عبد المطلب ، يتناقلون خبر جرهم لما طمرت بثر زمزم ، عند خروجها من مكة . فتعلق أمل عبد المطلب بالعنور على النبع المبارك المظمور . ومع طول التفكير صار هذا الأمل مشغله ليله ونهاره . حتى دلته رؤيا ملهمة على موضع البئر ، فغدا إليه بمعوله ، ومعه ابنته الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره . فلما همَّ بالحفر تصدت له قريش تتحداه أن يحفر هناك . وقد استضعفته أن لم يكن له غير ولد واحد . لكنه لم يبال غضب قريش ورفضها ، وتابع الحفر حتى بدت له الحجارة التي طُويت زمزم تحتها . وعاد الماء فتدفق من النبع المبارك ، يسقى الحجيج . .

يومها ، نذر عبد المطلب لئن وُلد له عشرة أبناء وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، لينحرن أحدهم عند الكعبة . وتوافى بنوه عشرة ، فتلث عبد المطلب حتى بلغ أصغرهم « عبد الله » رشده ، ثم دعا بنيه إلى الوفاء لله بنذره ، فلبُّوا طائعين ، وما يدرون أيهم الذبيح حين خرج بهم أبوهم إلى الكعبة وقد حمل كل منهم قدحاً باسمه . وضرب صاحب القداح عليها ، فخرج على قدح عبد الله ، وقد كان أبوه يتمنى في نفسه ، أن لو أخطاه السهم . . .

وتكررت قصة الفداء : همَّ الشيخ بذبح ولده ، فإِنْ مَسَّت الشفرة منحره حتى قامت قائمة قريش ، وقد هالها أن يغدو عملُ عبد المطلب تقليداً يُتبع ويورث ، أو كما قالت يومها :

« والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه . لأن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » .
وأجمعوا أمرهم على أن يستشيروا فيه عرافة لهم بخير . قالت ، لما عرفت أن الدية فيهم عشر من الإبل :

- ارجعوا إلى بلدكم فاضربوا القداح على ولدكم هذا وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجت عليه فزيدوا عشراً ثم عشراً حتى تخرج القداح على الإبل . فانحروها عنه وقربوها ، فقد رضى ربكم .

وفعلوا ، فإزال القدح يخرج على عبد الله وهم يزيدون الإبل عشراً فعشراً ، حتى بلغت مائة ، فخرجت القداح عليها . ولم يطمئن عبد المطلب حتى كرروا ضرب القداح ثلاث مرات ، وهى تخرج على الإبل المائة . ففحروها وثركت لا يُصد عنها إنسان ولا وحش .

ولما عبد الله ، واسترجعت مكة ذكرى الديح المفتدى الأول : إسماعيل ، جد قریش والعرب العدنانية .

ومن الكعبة خرج عبد المطلب بولده عبد الله إلى بيت سيد بنى زهرة : وهب بن عبد مناف الزهرى ، فخطب ابنته « آمنة » عروساً لعبد الله ، وهى يومئذ أفضل فتاة فى قریش نسباً وموضعاً .

* * *

فى عام الفيل ، وُلد اليتيم الهاشمى الذى مات أبوه عبد الله فى طريق عودته من رحلة الشام ودُفن فى ثرى يثرب ، ولم يقبل الموتُ فيه هذه المرة أى فداء :
وفى السادسة من عمره ، خرجت به أمه آمنة من مكة إلى يثرب ، لزيارة قبر أبيه عبد الله هناك . وغالها الموت فى طريق الإياب ، فدفنوها بالأبواء ، وتابع محمد سيره إلى مكة ، وحيداً محزوناً مضاعف اليتيم .

وفى صباه ، شهد حلف الفضول فى دار ابن جدعان بمكة ، وفيه تعاقدت أحياء قریش على ألا تُقر فى مكة ظلماً ، ولا يُظلم فيها أحد إلا كانت على ظالمه حتى ترد مظلمته .
فى الخامسة والثلاثين من عمره ، كان حادث تجديد بنيان الكعبة الذى حسم فيه محمد خصومة معقدة بين قبائل قریش ، أنذرت بحرب :

كانت الكعبة قد مستها شرارة من بجمرة إحدى النسوة ، فأحرقت ستائرهما وأوهت

بنيانها . ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة الأيدي لا تدرى ماذا تفعل ، تهيأ من المساس بقايا البيت العتيق . وشاع أن البحر رمى بسفينة جنحت إلى ساحل جدة ، فأسرع إليها رجال من قريش ثم عادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل من قبط مصر ، نجار بناء . وتم الاستعداد لتجديد بنيان الكعبة وقريش ما تزال تهيأ أن تمس بقاياها ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومي » فأخذ المِعْوَل وقال : « اللهم لم نزع ! اللهم إنا لا نريد إلا الخير » .

ثم أهوى بالمِعْوَل على البنيان المتصدع ، والقوم ينظرون إليه مشفقين عليه وعلى أنفسهم . فلما لم يصبه سوء ، تلبثوا ليلتهم مترددين يترصون عاقبة ما كان . فلما أصبح « الوليد » غادياً على الحرم لم يمسه شر ، هدموا معه . وتنافست القبائل في جمع الحجارة للبناء ، حتى إذا تم ، اختصموا فيما بينهم أيهم يستأثر بشرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه . وقد كان أقدم أثر باق من البيت العتيق .

ومكنوا على الخلاف بضع ليل ، ونذر الحرب ترداد . حتى تراضوا على أن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب البيت الحرام . وتعلقت أبصارهم بالبواب في انتظار الحكم ، فكان أول من دخل : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

هتفوا جميعاً : هذا الأمين ، رضينا بحكمه .
وحدثوه بالأمر ، فطلب ثوباً ثم تناول الحجر فوضعه فيه ، وقال للقوم من حوله :
« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً » .

فعلوا ، حتى إذا بلغوا به مكانه ، وضعه « الأمين » بيده ، ودعّم بناءه .
وانجابت الظلال عن أفق أم القرى .
هكذا على طول المدى ، كان لمكة حرمتها ولبيت العتيق مكانه وجلاله .

* * *

حتى بزغ الفجر الصادق من ليلة القدر المباركة وخرج المصطفى « محمد بن عبد الله » مبعوثاً بختام رسالات الدين ، يتلو في الأميين كلمة الوحي الأولى : اقرأ . .
ونسخ نور الفجر ليل الجاهلية ، فتطهرت ساحة البيت العتيق من الأصنام ، وانطفأت نار الجوسية ، وترنحت صروح الجبابرة تريد أن تنقض .

ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأظلل لواؤه شعوب الدنيا من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب أمة واحدة : قبلتها هذا البيت العتيق .

* * *

وتمضى الأعوام والقرون .
وتتعاقب الأجيال والعصور ،
والتاريخ مشدود إلى حشود الحجيج في الموسم الدورى من السنة القمرية ،
يسعون إلى البيت العتيق محرمين متطهرين ، خاشعين قانتين . قد تجردوا من كل زينة
وجاه وزهو ، وطرحوا عنهم ما يتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورُتب ومناصب ،
وتخففوا من أنقال المادية التي تثد روح الإنسان ، وتختق فيه هيامه القطرى إلى الحق والخير
والجمال .

وأمحت بينهم فروق الألوان والأجناس والعناصر ، وفوارق الطبقات والدرجات ،
واستوى الملوك والرعايا ،
واستوى الأمراء والدماء ،
واستوى الأغنياء والفقراء ،
واستوى الرؤساء والأتباع ،
فليسوا جميعاً سوى عباد الله .

وتشهد الدنيا في هذا الحرم آية المساواة في عقيدة لا يفاضل الناس فيها إلا بالتقوى :
أكرمهم عند الله أتقاهم .

يمحق بها الدين في ختام رسالاته ، كل ما يثود إنسان العصر من مآسى التفرقة
العنصرية وجرائم الاضطهاد المذهبي ، ولعنة الوثنية المادية . .

* * *

بصوت واحد ، في حرم البيت العتيق غير بعيد من غار حراء ، يعلو هتاف ألف ألف
وخمسين ألف مسلم ، شهدوا هذا الموسم :

ليبك اللهم لبيك
لا شريك لك لبيك

ويسترجع بنا التاريخ مشهد المسلمين الأولين وهم يدخلون هذا المسجد الحرام يوم

١٠٩

الفتح ، في السنة الثامنة للهجرة ، حافين بالمصطفى عليه الصلاة والسلام ، إذ يصلى بهم في الحرم المطهر من رجس الأوثان ،

وتتجاوب الآفاق ، عبر الزمان والمكان ، بدعائه عليه الصلاة والسلام يوم الفتح :

« الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله وحده ،

نصر عبده ، وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده »

فهو من ذلك اليوم المشهود دعاء عيدنا ، في الفطر والأضحى ، يصدع جبروت الطاغوت ، ويمحق أعداء الإنسان الذين يريدون ليطفثوا في ضميره نور الإيمان « والله مُتَمَّ نوره ولَوْ كره الكافرون » .

مِنَى :

١٢ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

في دار الهجرة

«إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لصَاحِبِهِ لَا تُحْزِنُنِي إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَبْدَهُ بِمَنْوِدٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

صدق الله العظيم

مع التاريخ كان مسعانا من أم القرى إلى دار الهجرة .
صلينا الظهر في المسجد الحرام ، وحملتنا الطائرة في العصر من جدة ، فأدركنا صلاة
المغرب مع الجماعة في الحرم النبوي . وبتنا ليلتنا في جوار الحبيب المصطفى ، يسعى بين أيدينا
أهل الحرم مرحبين مكرمين .

هذه الرحلة المريحة التي لم تستغرق ما بين عصر ومغرب ، على متن طائرة ملكية فوق
بساط ريح رُخاء ، أرهفت وعينا لحديث التاريخ عن رحلة نبينا المصطفى عليه الصلاة
والسلام ، من دار مبعثه في أم القرى ، إلى دار هجرته في يثرب .

أبصارنا تحديق في الطريق الصحراوي الوعر ، تلتمس من علي موضع « غار ثور »
بأسفل مكة ، حيث أوى المهاجر ﷺ مع صاحبه الصديق ، ريثما تهدأ المطاردة الشرسة
من طواغيت قريش .

خرجنا إلى الغار من خوخة في ظهر بيت الصديق ، بعد أن أشرف المصطفى على مهد
مولده ودار مبعثه فاستوعبها بنظرة حزينة وقال يودعها :

« والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ، وإنك لأحب أرض الله إلى . ولولا أن أهلك
أخرجوني منك ، ما خرجت » .

وفي غار ثور كان مأواهما ثلاث ليال ، والمطاردون يَعدُّونَ في أثرهما ، ويبلغون الغار
فيهمّون باقتحامه ، لولا أن صدّهم عنه نسيج عنكبوت على فتحة ، وحامتان وحشيتان
وقعتا عليه .

قال الصديق للمصطفى : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا .

فكان جوابه ، ﷺ : [لا تحزن إن الله معنا] .

وفي هدأة المساء من الليلة الثالثة لبقاهما في الغار ، سرّيا مع دليل ثقة أخذ بهما طريق
الجنوب من أسفل مكة ، وكان غير مطروق .

الطريق الوعر يتراءى لنا من نوافذ الطائرة ، بكل مخاطرته ومفاوزه والتاريخ معنا ،
يتبع خطوات المهاجر حتى يثرب ، واصلا إليها من قُباء . .

وفي أهل المدينة ، آنسنا ملامح أجدادهم الأنصار من أوس وخزرج ، يوم احتشدوا
هناك لاستقبال نبيهم المهاجر ، عليه الصلاة والسلام .

وفي أصواتهم إذ يرحبون بضيوف الحمى من حجاج الموسم ، رجعُ هتاف الأنصار يوم
الوصول :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجبَّ الشكرُ علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

* * *

المسجد النبوي يأخذ القلوب والأبصار بجلاله وعظمته ، وسعة رحابه وفخامة مبناه .
الأجيال من أمة محمد ، ﷺ ، قد أغدقت عليه من حبا ما لم يحظ بمثله مثوى بشر .
وبدلت له من فنها ومالها ، في أريحية وسخاء . وجلبت له من ديار الإسلام ، في المشرق
والمغرب ، نادر الرخام وثمين الخشب وبهيّ الثريات ، وفرشت رحابه بفافر البسط
والسجاجيد ، نسجت أيدى مهرة الصنائع من الشعب الإيراني المسلم .
وتبقى روح المكان في أنقى أصالتها وعراقتها ، كأن لم تمسه يدٌ بالتغيير منذ شهد التاريخ
بناء هذا المسجد في الأيام الأولى بعد الهجرة .

دخل المصطفى المدينة من قباء يوم الجمعة ، وسط حشد من المهاجرين والأنصار ،
فأدركته صلاتها في حى بنى عوف بن سالم ، فصلى بالصحابة أول جمعة بالمدينة . ثم أرخى
العنان لثقافته القصواء وهى تشق الزحام لا يدرى أحد أين يكون مقام المصطفى في دار
هجرته ، وكل بيوتها مفتوحة له ترحب به .

وبدا الموقف صعباً : كلما مرَّ بجى من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف
النزل فيهم ، وهو يتحرج من إثارة حى على البحر فبرء معتذراً : « خلوا سبيل ناقتي » .
إلى أين ؟ إلى حيث تمضى به القصواء .

وقد خطت وثيداً تشق الزحام حتى برّكت به عند مربد هناك . فحطّ المهاجر رحله
وقام يصلى .

على ساحة هذا المريد ، بُنى المسجد النبوي : ثانی الحرمين ، ومزار المسلمين على مر الزمان .
وتنافس المهاجرون والأنصار في بنائه بما تيسر من مواد : اللين والجريد والليف ،
وبعض الحجارة والخشب ، والمصطفى معهم ، يشارك ويوجّه ويعين . حتى تم البناء ، لم
يستغرق أكثر من أيام معدودات . ومن حول المسجد ، بُنيت تسع حجرات تفتح على
ساحته ، لتكون دار النبی المهاجر .

وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطا متواضعا ، بعضه من حجارة مرصوفة ، وبعضه من جريد يُمسكه الطين ، والسقف كله من جريد .
وشدّت خشبات بالليف ، فكانت سريراً لمن اصطفاه الله خاتماً للنبيين عليه السلام .
وغير بعيد من المدينة والحجاز ، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء ، في الحيرة وغسان واليمن ، وفي مصر والحبشة وفارس ، تعلو سامقة شامخة . ساطعة بأضواء البذخ والترف ، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذي لم يلبث سنا نوره أن كشف ضوءه كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصرو فرعون ، وإمبراطور ونجاشي وملك .
وفي الأحياء اليهودية الناشئة في يثرب ، وفي مستعمراتهم بشمال الحجاز ، دورٌ مشيدة وحصون منيعة ، تطل على المبنى البسيط المتواضع لنبي الإسلام ، فيبدو لها فقيراً أشد الفقر . ويلتقط أهلها ما يتلو الأميون من آيات القرآن في الحث على الإنفاق في سبيل الله ، براً وتراحماً وتكافلاً . فتذيع القالة اليهودية الفاحشة : « إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » :
وتمضي الأعوام والقرون ، توسع من رحاب المسجد وتسخر في العناية به والبذل له ، وهو هو ، بروح عراقته وجوهر شخصيته .

* * *

ليتلنا الأولى بدار الضيافة في جوار الحرم النبوي ، كانت مع التاريخ إذ يروى حديث هذه المدينة التي فُتحت بالقرآن من قبل الهجرة ، ففتحت قلبها وبيوتها لهجرة الإسلام . وقد كانت إلى ماضٍ قريب ، تبدو بعيدة عن مسرح الأحداث ، وإن لم تصرف سمعها عن الصراع الدائر في مكة بين الوثنية والإسلام ، وهو يدنو من ذروة تعقده مؤذناً بوشك تحولٍ في متجّه الأحداث .

قبل الهجرة بستين ، أهل موسم الحج وخرج المصطفى كدأبه في كل موسم ، يعرض الإسلام على وفود القبائل العربية ، وقومُه أشد ما كانوا عليه من خلافه ورفض دينه ، إلا قليلاً ممن آمن به .

وبدت الجولة في أولها ، مدعاةً إلى يأس وقنوط :

سعى إلى « منى » حيث يجتمع الحاج ، فوقف على الحشود هناك داعياً ومبشراً ونذيراً ، فتصدّى له عمه أبو لهب ، يكذّبه ويصد الناس عنه .

وانتظر ﷺ حتى انصرفت القبائل من منى إلى منازلها في مكة ، فأثى كندة فدعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه .
١

وكذلك ردّه بنو كلب ، لم يقبلوا دعوته .
ثم أتى بنى حنيفة فى منازلهم ، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبحَ عليه ردّاً منهم .
وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة ، فساوموه بالبيعة ، على أن يكون لهم الأمر من بعده !

ولما قال ، عليه الصلاة والسلام : « الأمر إلى الله يضعه حيث شاء » . ردّ المساومون :
« أفنهدف نُحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك » .
ومن حيث بدت الأبواب كلها موصدة هناك فى وجه الإسلام ، ظهرت يثربُ على الأفق الشمالى البعيد ، تجذب إليها متتجه الأحداث من دائرته المقفلة فى أم القرى :
لقى المصطفى فى (العقبة) نفراً من البثريين الخزرج ، دعاهم إلى الإسلام فأجابوه ،
وقالوا :

« إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك .
فستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبتك إليه من هذا الدين ،
فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجلَ أعزُّ منك » .

ثم أخذوا طريقهم إلى الشمال عائدِينَ إلى بلادهم ، ومعهم صحابى جليل من صميم قريش . هو « مصعب بن عمير بن هاشم » موفداً من قبلى المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ليقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين .

ونزل مصعب على أنصارى من الخزرجيين أصحاب بيعة العقبة الأولى : « أسعد ابن زرارة » كبير بنى النجار ، أخوال أبى محمد ، عبد الله بن عبد المطلب .

فحدث أن خرج مصعب يوماً مع ابن زرارة ، إلى حى بنى عبد الأشهل ، واجتمع إليهما رجال من الأنصار ، فسمع بمقدمهما « سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير » وهما يومئذ سيدا قومهما ، وكلاهما على دين آبائهما .

ونخرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة ، وهو ابن خالته . فحرّض أسيد ابن حضير على أن يقوم فيردّه وصاحبه عن الحى .

التقط ابن حضير حريته ، ثم أقبل إليهما فقال متوعداً :

« ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » .

قال مصعب بن عمير : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً قبلته ، وإن كرهته كفّ

عنك ما تكره !

فركز « أسيد » حربته وجلس متكئاً عليها ، يسمع ما يقول مصعب عن الإسلام ، وما يتلو من القرآن .

ثم قال وقد زايله تقبُّضه وتجهمه : ما أحسن هذا الكلام ؟ وأسلم . وانطلق عائداً إلى حيث ترك « سعد بن معاذ » في جمع من قومه ، فعرف سعد أنه جاء بغير الوجه الذي ذهب به .

وسأله عما فعل بالرجلين ، مصعب وأسعد ، فقال : كلمتهما فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، وإني لأخشى على ابن خالتك من بعض القوم .
فقام سعد مغضباً ، فما أبعد حتى رأى الرجلين يتجهان إليه في طمأنينة ، وعرف أن أسيد بن حضير ، إنما أراد له أن يسمع منها .
وتجاهل مصعباً ، وقال لأسعد ، ابن خالته :
— يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من قرابة ، مارئت هذا مني . أتغشانا في ديارنا بما نكره ؟

فترك أسعد الكلمة لمصعب الذي قال :
« أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما نكره ؟ » .

قال ابن معاذ : أنصفت وتكلم مصعب ، وقرأ القرآن .
وقبل أن يلفظ سعد بن معاذ بكلمة ، عرف القوم الإسلام في وجهه ، لإشراقه وتهلله .

وعاد إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا جميعاً « فما أمسى في حى بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة ، إلا مسلماً ومسلمة » .

* * *

في الموسم التالي كانت بيعة العقبة الكبرى التي شهدها ثلاثة وسبعون رجلاً من الأوس والخزرج ، وامرأتان أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى . وعادوا إلى المدينة والإسلام معهم ، قد بدأ ببيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤدنة بتحول حاسم في اتجاه الأحداث .

فبعدها بسنة واحدة ، كانت الهجرة التاريخية التي اختارها ثانی الخلفاء الراشدين « عمر ابن الخطاب » بداية للتاريخ الإسلامی .
تقديراً لجلال الحدث الذي كان منطلق تحول حاسم وخطير في تاريخ الإسلام .

* * *

ونطوف بعالم المدينة وضواحيها ، والتاريخ معنا دليل وشاهد :
هذه « قباء » منزل المهاجر عند وصوله من مكة ، وهذا مسجدها ، أول مسجد بنى في الإسلام .

وهذه بدر ، تعيد ذكرى « يوم الفرقان » في السنة الثانية للهجرة حيث كانت الجولة الأولى من الصدام المسلح بين الإسلام وطاغوت الوثنية . وفيها تحدت موازين القوى ، لا بين هؤلاء وهؤلاء فحسب ، بل في كل صراع بين حق وباطل .
وذهب بدر عبرة ومثلاً :

القتال « يوم الفرقان » لم يكن بين قلة وكثرة فحسب ، ولكنه كان بين كثرة يعوزها سلاح الإيمان ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر في حماية الجاه الموروث ويتق الموت ، وقلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا جهاداً في سبيل الله وغضباً لما انتهك من حرمة ، لا يبالي على أى جنب كان في الله مصرعه .

« قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَيْتِنِ الثَّقَاتِ فَنُتْقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ » .

* * *

وهذا جبل أحد ، ما يزال حيث هو ، يروى حديث يومه المشهود ، ويعطى درسه وعبرته :

فيه خرجت قريش بجدها وحديدها وأحايشها ومن والاه من بني كنانة وأهل تهامة ، ثأراً لقتلها في بدر ، ورحضاً لعار الهزيمة . . .

ونزل الجيش الزاحف من مكة على شفير الوادي مقابل المدينة ، وخرج له المصطفى بجنده المهاجرين والأنصار .

والتحم الجيشان . وحين بدا النصر للمؤمنين لا شك فيه . وولت قريش الأدبار عن معسكرها وتركت لواءها مطروحاً تحت مواطئ أقدام المتصرين ، تسرع رماة المسلمين ، فمالوا إلى معسكر قريش التي ولت الأدبار عنه ، فكشفوا ظهور المسلمين لتحليل المشركين التي

لاحت لها الفرصة ، فكرت على المسلمين من حيث انكشفوا . .
وتغير وجه المعركة ، ليتعلم المسلمون الدرس . .

* * *

وهنا وهناك ، حيثما اتجهنا وأنى أقنا ، كانت أطياف الكنائس الأولى من حزب الله ،
تحف بنا وتجلو لبصيرتنا أروع مواقف البطولة ومشاهد الجهاد ، وتحبى في نفوسنا الأمل
الضائع ، وتذكرنا بأجداد ماضيها الأغر الذى شهدنا التاريخ فيه نلى عليه فيكتب ونوجهه
فيسير . .

* * *

وحان أوان الرحيل ، فودعنا الحبيب فى مثواه ، وكأنا نودعه يوم رحل عن دنيانا بعد
أن أبلغ رسالته ، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين والحق فى الآفاق ، وأن يحملوا
لواء القرآن إلى الأقطار من مشرق ومغرب . .
وكانت آيته ، ﷺ بعد أن أتم رسالته ، أن يجوز عليه المرض والموت ، كما جازت
عليه أعراض البشرية وهمومها وعواطفها لكيلا يُفتن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول ،
كما فتن من قبلهم فاتخذوا نبيهم مع الله إلهاً :
« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَنُ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .
ودفنوه هناك ، حيث مات فى حجرة زوجه أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر .
دفنوا محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى .
وعاش الرسول ﷺ ، خاتم النبيين الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ، فى ليلة
القدر المباركة من شهر رمضان المبارك .
« سلامٌ هى حتى مطلع الفجر »

المدينة المنورة :

٢٠ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

عود على بدء

« إن هذه أمتكم أمة واحدة »

رحلتى هذه المرة . كانت للحج وزيارة الحبيب المصطفى ، وقد عقدت العزم على أن أقضيها في النسك والعبادة والتأمل ، لا أخلطها بشيء من شواغل الدنيا إلا ما لا حيلة لي فيه من هموم راسخة في أعماق النفس .

من ثم ، لم يكن لرحلتي أى برنامج خارج منطقة الحرمين . بل إنى عزمت كذلك على الاعتذار عما عسى أن ألقاه من دعوات خاصة ، أو اجتماع بالزملاء الأدباء والكتاب ، راجية أن أتوه عنهم في ركب الحجاج المليون ، حيث لا يكاد أحدٌ يتميز من أحد ، ونحن في زى الإحرام ومواكب العبادة .

وفاتنى أن الملتقى الإسلامى الكبير في الموسم ، يحقق تعارفنا من حيث ندرى ولا ندرى . فتفتح قلبى للقاء إخوة وأصدقاء من أقطار المشرق والمغرب ، بعد أن شط بنا النوى فتباعدت الديار ونأى المزار . وآخرين منهم جمعتنا على البعد زمالة الفكر والوجدان ، وإن لم يسبق لنا تعارف ولقاء .

ثم كانت آية الموسم الجامع ، أن يلتقى بعضنا بعضاً مع اختلاف الألسنة والأجناس ، فتتعارف بالقلوب وإن لم تتعارف بالأسماء . وتتصافح وجوهنا وإن لم تتصافح الأيدي . وتشدد بعضنا إلى بعض رابطة العقيدة ، نعمة الله على هذه الأمة ، تتجلى في ملتقاها عند القبلة الواحدة في مهد النبوة ومنزل الوحي .

ومن حيث رجوت أن أتقى مخالطة الناس . صرت أسعى إليهم تلقائياً مستجيبة إلى جاذبية الملتقى ، ومدركة ما غاب عني من حكمة الحج في تعارفنا وترسيخ شعورنا بوحدة الانتماء إلى أمة القرآن . .

* * *

ولما دنا الرحيل ، رحبت بدعوة لزيارة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، لأشهد المدى الذى وصل إليه جهاده في مقاومة التخلف والجهل والجمود ، وأرى ماذا آتى غرسه من طيب الثمرات .

وكننت أتابع من بعيد ، ككتائب الشباب وهى تخرج من أعماق البادية فتقتحم الأسوار إلى آفاق العلم والمعرفة لكنى ما توقعت أن يشهد جيلى ، خروج بنات الجزيرة من متاهة الجهل المفروضة عليهن باسم الدين ، إلى رحاب الجامعة . ولم أكن نسييت السدود الصماء التى رأيتها مضروبة على (حريم الجزيرة) تتحدى أى محاولة لإخراجهن إلى دور العلم . وقد سألت فى رحلتى الأولى : فىم هذا التعطيل لعقل المرأة المسلمة والوآد لوعياها ، والعلم فى ديننا فريضة على كل مسلم ومسلمة ؟

فكان الرد : يخشى المشايخ أن يكون تعليمها ذريعة فساد خلقى . ولما لم أفهم كيف يمكن أن يكون العلم مفسدة ، قيل لى فيما قيل ؛ إن البنت إذا تعلمت القراءة والكتابة ، لم يؤمن أن تتسلل إليها ومنها رسائل غرامية ، فتساق إلى الغواية والإغواء !

يومها لم أملك إلا أن أقول : لقد قرأنا وكتبنا ، وإن إحدانا تملك من أمرها ، ما لا يملكه الحراس الأشداء . عفتها كانت وستظل أبداً ملك يديها ، لا تُفرض عليها من خارج . وهى فى الإسلام مكلفة كالرجل سواء بسواء ، تحمل وحدها أمانة إنسانيتها وتبعة كسبها ومسئولية عملها . وقد « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنى لي عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

وكان أخشى ما أخشاه ، وأنا أرى بنات الجزيرة معطلات العقل موءودات الوعي ، أن يُظن بالإسلام أنه يريد للمرأة أن تُمسح آدميتها فتُهبط إلى دونية الدواب العجماء ، وإنى لأعلم أنه الذى حرر عقولنا وضأثرنا ، وأن الله سبحانه ، مَنْ علينا بأن بعث فىنا نبينا عليه الصلاة والسلام يعلمنا الكتاب والحكمة . فإذا أفتى مشايخ نجد بأن تعليم البنت مفسدة ينبغى أن تُتقى سداً للذرائع ، والدنيا تعرف هؤلاء المشايخ فقهم للإسلام وجهادهم فى مقاومة البدع وتنقية العقيدة من الشوائب ، فإن الناس يُعذرون إذا ظنوا بالإسلام الظنون ، وحسبوا أنه يفرض على المرأة أن تعيش ذمية صماء بكاء عمياء البصر والبصيرة .

ومعاذ الله أن نكون هكذا ، ونحن نتلو من آياته المحكمات .

« إن شرَّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . .

وتركتُ الجزيرة ، من عشرين سنة ، وليس فيها مدرسة واحدة لتعليم البنات . .
المدنية العصرية غزت بيوت نجد والأحساء ، فسمحت (للضوء ، والسينما والراديو)
بدخول أجنحة الحرم .

ولم تسمح بدخول كتاب !
ومضى جيل واحد فحسب ، فُتحت فيه أبواب العلم الموصدة في وجوه البنات ،
فاجتزن المراحل إلى التعليم العالى . وهؤلاء هن في (جامعة الملك عبد العزيز بجدة) ،
يوشكن أن يتمن مرحلة الليسانس ، ويحققن ما لم يجرؤ عهد العاهل الراحل على الخوض
فيه ، فتركه أمانة لعهد ابنه الملك فيصل ، الذى جعل لتعليم البنات في المملكة ، رئاسة
خاصة تعوض ما فات ، وتصل ما انقطع من ماضى هذه الأمة ، يوم كانت المرأة تشارك
في صنع تاريخها مشاركة ذات بال ، وتفرض وجودها الفعال المؤثر ، على حياة قومها في
الجاهلية والإسلام .

وفي أنحاء الجزيرة ، باديتها والخصر ، تقوم مدارس البنات منارات هدى ، وتستقبل
في كل عام مع أفواج الطالبات ، فوجاً من معاهد الملمات يحملن أمانة القيادة الصعبة على
الدرب الخطر ما بين متاهة الجهل ورحاب المعرفة . فأذكر بهن تلميذات مدرسة النبوة من
الصحابيات والتابعيات ، وأجيالا بعدهن من المسلمات ، بلغن مرتبة المشيخة في علوم
العربية والإسلام ، وإلهن كانت رحلة طلاب العلم في عصور عز المسلمين . . .
وسلام على من اتبع الهدى . . .

جدة :

١٥ من دى الحجة ١٣٩٢ هـ .

من وحيِ الملتقى

«وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الْأَكْبَرِ»

من ذُرّاً عرفات ، إلى سفح المكبر

في طريقى إلى المسجد الحرام ، ذكرت المسجد الأقصى في محنته ، وقد بعدُ عهده بوفود الحجاج ، وحطّ عليه الشيطان يريد ليُجعل منه معبداً للطاغوت . فتجسّمت المفارقة بين المسجدين ، ضُرب بينهما بسورٍ باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبَله العذابُ .
وفي مسمعى نداء عاهل الجزيرة « خادِم الحرمين » يؤذَن في وفود الموسم بالجهاد ويذكر المسلمين بعار إسرائيل ، ويستنفِزهم لمعركة الشرف والبقاء ،
فهل يبلغ الأذان من المسجد الحرام مسمعاً من أمةٍ تولى وجهها شطره حيث تكون ؟

* * *

من فجاج الأرض حَجُّوا عابدين
وعلى عرفات قاموا خاشعين
قد تناسوا ما على أرض البشر
من هموم وعداوات وشر
وتماحت بينهم كل الفروق
في حمى الكعبة والبيت العتيق
وانحنت هامُّ الرعايا والملوك
للذى نَعَزَ و له كلُّ الجباه
وإليه ، فى سماوات علاه
رفعوا النجوى دعاءً وصلاه
« رينا لبيك إن الحمد لك »

* * *

(١)

خشع الكون لرأى المؤمنين
مذاهلوا في خشوع مُحَرِّمين
عيدُهم حج وسعى وفداء
وأمانى عمرهم هذا اللقاء
لِيلْبُوا ضارعين قانتين
وحدك اللهم ياخالق نعبد
وعلى نورك يارب محمد
كل مسعانا لدنيا أولدين

(٢)

وعلى سفح المكبر
عند أولى القبلتين ،
ثالث الأقداس صنو الحرمين
في جوار المهدي من أرض السلام
نشر الشيطان طاغوت الظلام
ومضى يعوى ويزأر . . .

* * *

وتوارى القدس في جوف الدجى
بائس الأطلال محبوب السنى
يسأل الأنقاض : « أين الموعد ؟
يُطْلُ الفجر من ذاك الضباب
أين مسرانا وأين المعبد ؟ »
ثم لارداً ، سوى رجع الصدى
وعواء الوحش من مرعى الذئاب

* * *

وعلى المهدي المسهّد
غصنُ زيتونٍ يَتيم
وبقايا من هشيم
وصدى صوتٍ بعيدٍ يتردد
من ذُرا عرقاتٍ إلى سفحِ المكبرِ :
« وحدهُ اللهم نعبد .. »
وعلى مسرى محمد ،
يجوار المهدي من أرض السلام
ينشر الشيطان طاعوت الظلام ،
ويعريد ..

أغنية للعيد

« إلى أمّتي ، في لياليها الساهرة ! » .

(١)

عيدُنا كان على طول المدى
يملاً الأفق بهاءً وسنى
كلما هلّ احتشدنا للقائه
ونهلنا الأنسَ من فيض عطائه
وشدّونا ، والدنّى تصغى لنا :
« ربنا ليك إن الحمد لك »

* * *

الملايينُ على مرّ الزمنْ
من حجاز وعراق ويمَنْ
من ضفاف النيل حتى الأطلسِ
من رُبّا الشام ويبتِ المقدسِ
كم رآها العيد في يوم ميني
تلتقى روحاً وقلباً ومُنَى
بهتاف العيد يعلو في الفضاء
ربنا ليك يانور السماء

(٢)

عيدنا اليوم وجوم وغضبْ
يرفض الصبر ويمحّوه الطربْ
جُرْحُنَا يتزف من جرح الحِمَى
فبرد الشهد مرّاً علّقها

عُصْبَةُ السِّفَاحِينَ أَعْدَاءُ الْبَشَرِ
دَنَسَتْ أَرْضَ الرِّسَالَاتِ الْكُبَرِ
شُوِهَتْ وَجْهَ الْحَيَاةِ
مَسَخَتْ كُلَّ الْقِيَمِ
وَاسْتَبَاحَتْ حَرَمَةَ الْإِنْسَانِ
فِي قُدْسِ الْحَرَمِ

* * *

عِيدُنَا ثَارَ أُلُوفُ الشَّهْدَاءِ
وَمِلَايِينَ الضَّحَايَا الْأَبْرِيَاءِ
وَمَآسَى اللَّاجِئِينَ الْغُرَبَاءِ
وَبَطُولَاتِ الْجُنُودِ الشَّرَفَاءِ
وَهَتَافِ بَدْعَاءِ الْمَصْطَفَى
يَوْمَ عِيدِ النِّصْرِ فِي أُمِّ الْقُرَى :
رَبَّنَا لِيَبْلِكَ إِنْ الْحَمْدُ لَكَ .

* * *

وَهُوَ ذِكْرِي مِنْ مَضَى
مِنْ أَحِبَّائِنَا ،
وَحَدِيثِ الْغَدِّ عَنَّا ،
لَبْنِينَا بَعْدَنَا
لَنْ يَقُولُوا إِنَّا كُنَّا هُنَا
قَدْ لَهَوْنَا أَوْ نَسِينَا مَا بِنَا
لَنْ يَقُولُوا إِنَّا تَمَنَّا عَلَى ضَمِيمِ بِنَا ،
نَتَسَلَّى بِحِكَايَا ، مِنْ هُنَا أَوْ مِنْ هُنَا
وَفِكَاهَاتِ أَلْفُنَا مَضَعَهَا
نَبْعُدُ الْهَمَّ بِهَا عَنِ بَالِنَا
لَنْ يَقُولُوا إِنَّا فِي أَعْيَادِنَا

قد غفونا لحظة عن مأساتنا
وكاننا لا نعي أبعادها ،
وكاننا لا نرى آمادها

* * *

عيدنا ثار ألوف الشهداء
وملايين الضحايا الأبرياء
ومآسى اللاجئين الغرباء
وبطولات الجنود الشرفاء
وهتاف بدعاء المصطفى
يوم عيد النصر في أم القرى :
ربنا لبيك إن الحمد لك

رسالة العيد

من جنود الجبهة ، إلى حجاج الموسم

في طواف الوداع ، صبحَ يوم الرحيل ، بدأت أحس ثقل الهموم التي تخفت منها منذ
حللتُ بالحمى الآمن . وذكرتُ كتائب المرابطين من شباب الأمة ، على خطوط وقف
القتال ، يقضون عيدهم ، كما قضوا أعياداً قبله ، في انتظار معركة الشرف والوجود
والمصير .

فكأنني سمعتهم ، في رؤياي ، يُقضون إلينا بنجوى أرواحهم الظامئة إلى الفداء :

* * *

أهلنا الحجاج من شرق ومغرب
ياضيوف الله في أم القرى ،
وضيوف المصطفى في روض يثرب ،
سَلِّمَ اللهُ عليكم ،
وهنيئاً عيدكم ،
في حِمَى البيت الحرام .

* * *

أهلنا . نحن أيضاً كم ودُّنا .
أننا كنا هناك ،
محرمين ، طائفين عابدين
نُجْتَلَى نورَ الحرم ،
نرتوى من نبع زمزم
ثم نسعى زائرين ،
مرهقى الشوق إلى مثنوى الحبيب
صلوات الله عليه والسلام

* * *

أهلنا ،
 هذه الرحلة كانت ،
 في الصبا ملء رؤانا
 قبل أن نبلغ تكليف العقيدة
 قبل أن ندرك مغزاها فريضه
 في صبا ، كم شجانا كل موسم
 موكبُ الحجاج من أهلي وجيره
 ومراسيمُ الوداع ،
 وحشودُ الضارعين ،
 يسألون الركب في يوم الرحيل :
 اذكرونا في ميني ،
 وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء
 واذكرونا في الحرم
 واحملوا منا السلام
 للعجيب المصطفى خير الأنام

* * *

وبقيتنا في انتظار ،
 كلما قلنا متى نذهب صُبحه ؟
 قيل : صبراً ، أنتم الآن صغار
 وسيأتي دوركم ، حقق الله مناكم .

* * *

أهلنا ،
 في صبا كم خرجنا ،
 من قرانا والبنادر
 عندما تأتي البشائر .
 للقاء العائدين ،
 بالدفوف والطبول

والمشاعل والمجامر .
 وملأنا الجو شذواً
 بأغاريد الفرح ،
 وتحيات الوصول .
 وسهرنا الليل نصغى ،
 بالقلوب والعقول ،
 للحديث الحاج عن أنس القبول ،
 والمشاهد والمواقف ،
 والمناسك والشعائر
 وازدحمنا حوله نبغى القرى ،
 من هدايا وكنوز وذخائر :
 لمحة من نور مكة ،
 جرعة من ماء زمزم
 نفخة من عطر طيبة
 تمر من نخل يثرب
 ونقول الله أكبر ،
 ياهناه ، حقق الله مناه !
 والحبيب قد دعاه ،
 ففى ننمو ونكبر ؟

* * *

رحلة كانت لنا ،
 حلم الصبا وعد الشباب ،
 قبل مأساة الهزيمة
 وكبرنا ، فمرفناها عقيدة
 عبأتنا للجهاد ديناً وعباده
 حشدتنا هاهنا خمس سنين

في انتظار المعركة
وأمانينا فداء وقاتل وشهاده

* * *

فاذكرونا أهلنا ،
نحن جند الله جيل المعركة
اذكرونا في ميني ،
وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء
بلغوا عني الحبيب ،
أننا نرعى حماه ،
ونؤدى فرضنا ،
وعلى وعد اللقاء ،
• في رحاب الخلد مثوى الشهداء
قد نذرنا هدينا ،
عندما يأتي الأوان ،
يوم عيد نحرنه ،
وسلاماً أهلنا حجاج مكة
ياضيوف الله في البيت الحرام
واضيوف المصطفى خير الأنام

فهل قد بلغت الرسالة ؟
أرجو وآمل . .

عرفات :

٩ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

الفهرست

الصفحة

٥

دعاء

٧

إهداء

(١)

١١

رحلة إلى جزيرة العرب

١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م

١٧

ليلُ الجزيرة ، وآية البيان

٢٧

الفجر الصادق ، وآية الفرقان

٣٧

وراء الأسوار

٤٥

المعركة الكبرى

٥١

وجهاً لوجه ، في قلب الصحراء

٥٧

ثورة في الصحراء

٦١

صور من الجزيرة

٦٣

المغتربات

٦٧

جارة النبی

٧٣

هاجر

٧٩

آمنة

٨٩

أصداء من الجزيرة

٩١

من بعيد

الصفحة

(٢)

٩٧

لقاء مع التاريخ
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

٩٩

لبيك اللهم لبيك

١١١

في دار الهجرة

١٢١

عوداً على بدء

١٢٥

من وحى الملتقى

١٢٧

من ذُرا عرفات ، إلى سفح المكبر

١٣١

أغنية للعيد

١٣٥

من جنود الجبهة إلى حجاج الموسم

١٣٩

الفهرست

دار المعارف

تقدم من مؤلفات الدكتورة بنت الشاطي

في الدراسات القرآنية والإسلامية :

التفسير البياني للقرآن الكريم (في جزأين)

مقال في الإنسان : دراسة قرآنية

الإعجاز البياني للقرآن ، ومسائل ابن الأزرق

القرآن والتفسير العصري

مع المصطفى ، في عصر المبعث

نساء النبي عليه الصلاة والسلام

وفي الدراسات الأدبية :

رسالة الغفران : نص محقق (طبعة الذخائر)

الغفران : دراسة نقدية

قيم جديدة للأدب العربي ، القديم والمعاصر ١ ، ٢

لغتنا والحياة

تراثنا ، بين ماضٍ وحاضر

الخنساء

أرض المعجزات

هذا الكتاب تحدثنا فيه الدكتورة بنت الشاطي عن جولة واسعة المدى في تلك الأرض الحبيبة إلى كل قلب ، الجديرة بكل إعجاب ، لأنها أرض المعجزات ، التي قدّر لها منذ أربعة عشر قرناً أن تغيّر بالإسلام تاريخ العالم ، وتقرر مصائر دول وشعوب وحضارات وديانات . وهذه الأرض ذات المنابع الروحية المقدسة تشارك اليوم في دنيا المادة كما تشارك في دنيا الروح ، وتدفع سيل الزيت دافقاً غزيراً ، فتسهم بذلك في تقرير مصير العالم . فهي أرض دين ودنيا جديدة بأن نجول في جنباتها ونقرأ ما كتب الرحالون عنها ، وما شاهده الجوالون في نواحيها المختلفة .